مذاهب وشخصيات
أندرسن
رائد أدب الأطفال
بقلم
عبد الله حسين

مذاهب وشخصيات

أندرسن

رائد أدب الأطفال

بقلم

عبد الله حسين

محتويات الكتاب

الفصـــل الاول

حياة هانز كريستيان أندرسن

- × مقدمة •
- × أيام الطفولة •
- × السنوات الأولى فى كوبنهاجن •
- × أيام الدراسة •
- × رحلاته وقصصه الأولى •
- × عودة الى المسرح •
- × القصص الاسطورية •
- × اقامته فى بيوت الأعيان •
- × الى الخارج •
- × تقدير •
- × ختام القصة

حياة هانز كريستيان أندرسن

« الواقع أن حياتي تبدو لي مثل القصة الأسطورية ، مملوءة بالاحداث ، حافلة بمختلف الألوان: فلقد خبرت الفقر والوحدة والحرمان وتنقلت بين أبهى الأوساط وأرقاها ، ولقد مارست المهانة والتكريم .. »

أندرسن

مقدمة

ان أول ما يسترعى نظر الزائر لمتحف هانز كريستيان أندرسن فى مسقط رأسه (أودنز) هو ذلك العدد الضخم من الطبعات التى نشرت فيها أقاصيصه بجميع لغات العالم . وليس العجيب فى الأمر هو عدد اللغات التى ترجم اليها أدب أندرسن ، بل ان المسترعى للنظر حقا هو أن المطابع ما تزال حتى الآن تخرج طبعات حديثة لقصصه .

وان دل هذا على شيء فانما يدل على أن أعمال هانز كريستيان أندرسن ما زالت أدبا حيا خالدا تجاوز قيود الزمان والمكان .

ولا يفوت القارىء لهذه الأعمال أن يلحظ ما كان يتسم به أندرسن من احساس مرهف وادراك دقيق لكوامن النفس البشرية ، الا أنه يبدو أكثر انعطافا الى أولئك القابعين فى الجوانب المظلمة للمجتمع الانسانى ، لانه كان يحس أنهم صورة للبيئة التى انبثق منها .

وتعتبر تجارب أندرسن الشخصية من أهم العناصر التى تلقى الضوء على كتاباته ، وكان هو يصرح عادة بأن هذه القصة أو تلك مبنية على احدى التجارب الكامنة فى أغوار عمره ، وما كان أزخر ذلك العمر بالتجارب والاحداث !

ولقد أدرك أندرسن التفاعل الوثيق بين حياته وفنه فاحتفظ فى أمانة واخلاص بكل شاردة وواردة ، وكل ذكرى يمكن أن تفيد فى القاء الضوء على حياته . ولا يعنى ذلك أنه اهتم فحسب بتسجيل شهادات التقدير والاعتراف التى انهالت عليه فى أواخر أيامه من جميع أنحاء أوربا ، ولكنه خلف مجموعة من الاجندات والمفكرات الشخصية ، واحتفظ بالخواطر

التي كان يدونها في أسفاره ، بل وبالزهور التي كانت تذكره بالاحداث الاثيرة الى نفسه .

على أن أهم عون للدارسين لحيـــاة أندرسن وفنه كان تلك التراجم الذاتية وأهمها « كتاب حياتي » سنة ١٨٣٠ وكتاب «قصتي بدون خيال» الذى ظهر بالألمانية سنة ١٨٤٧ و كتاب « أسطورة حياتي » الذى صدر حوالى سنه ١٨٥٥ .

ولقد عرض أندرسن في هذه الكتب قصة حياته التي تضارع أعجب القصص الاسطورية ، ولن أتعرض هنا للتفاصيل الدقيقة في سيرته فان هذا يتطلب مجلدات كاملة ولكنى سأرسم الخطوط العريضة لتلك الحياة التي بدأت وسط أسرة معدمة في أحد أزقة الدانمرك وانتهت به وقـــد أصبح أعظم كاتب من نوعه في أوربا ومن صفوة كتاب العالم على الاطلاق، سأرسم هذه الخطوط بالقدر الذي يسلط الضوء على مكانته الأدبية ويعطينا صورة واضحة لفنه .

***

أيام الطفولة :

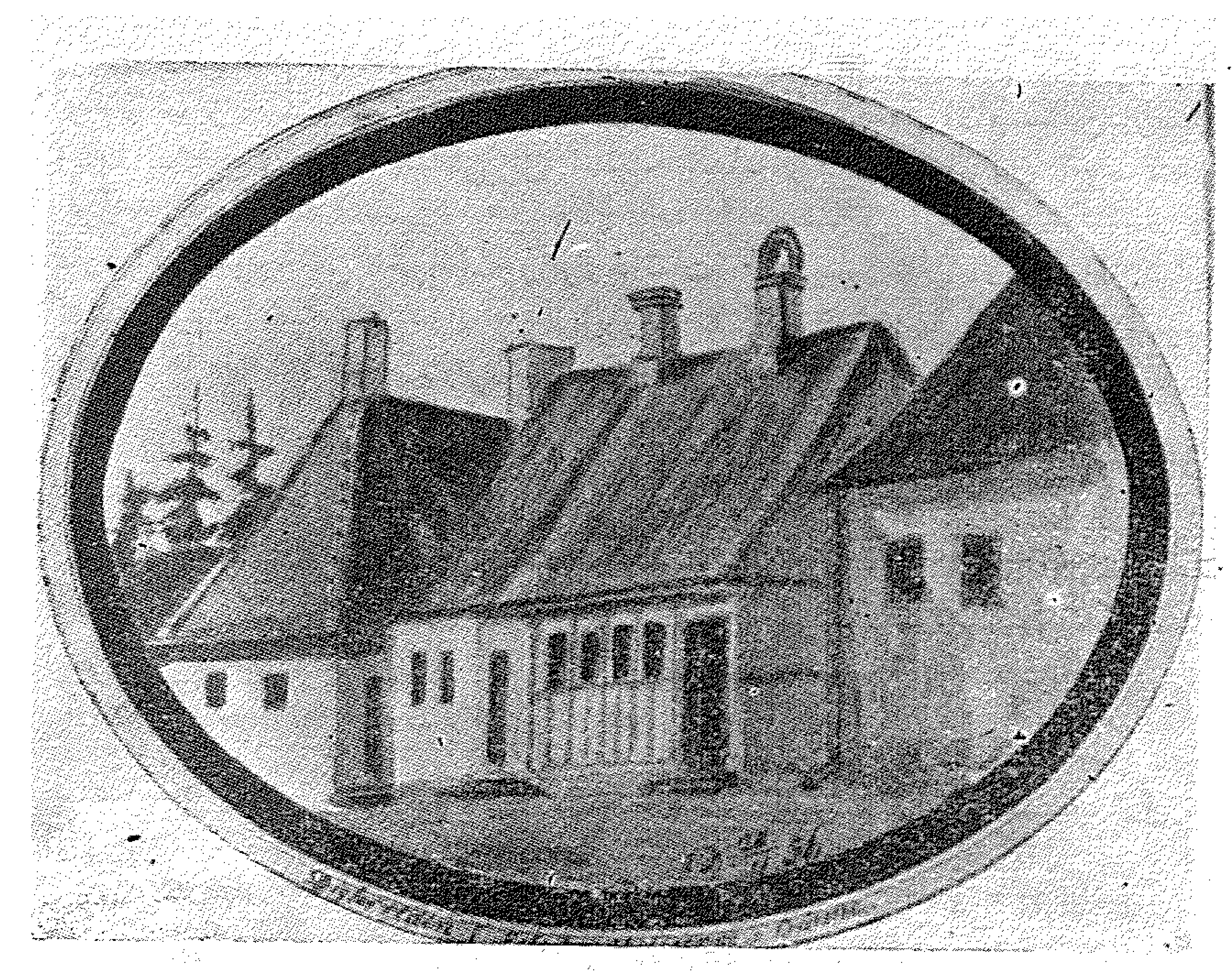
كان عدد سكان (أودنز) في بداية القرن التاسع عشر خمسة آلاف نسمة ، ومع ذلك فقد كانت هذه المدينة هي ثاني مدينة في الدانمرك ، كما أنها كانت صورة حقيقية للمجتمع الدانمركي في ذلك الوقت بما فيه من جوانب طيبة وسيئة .

ففي أودنز كانت المنازل الارستقراطية الانيقه القائمة على الشوارع النظيفة الممهدة الى جوار الازقة المظلمة والحوارى الضيقه الكئيبة التي تعج بالطبقات السفلى من أصحاب الحرف والعمال الذين يبقون بلا عمل أغلب أيام السنة . هذا الى جانب جحافل الشحاذين والنساء اللاتى يرتزقن من غسل ملابس الآخرين .

ولقد كانت الحياة شاقة بالنسبة لهؤلاء جميعا ، ولم تكن المنظمات الصحية والاجتماعية قادرة على انقاذ مثل ذلك العـــدد الضخم من وهدة المرض والفقر .

في قلب هذه الطبقة ولد هانز كريستيان أندرسن في الثاني من أبريل عام ١٨٠٥ . كان والده يعمل اسكافيا ، وكانت أمه تكبر أباه بخمسة عشر عاما . وأترك المقام هنا لهانز كريستيان أندرسن ليقدم لنا صورة للبيت الذى ولد فيه وأمضى به زهرة أيام الطفولة :

« كان بيت طفولتي يتكون من غرفة واحدة يحتل جزءا كبيرا منهـا (البنك) الذى يعمل عليه والدى ، وكان بجوار (البنك) سرير ثم المتكأ الذى أنام عليه . وكانت الجدران مزدانة بمجموعة من الصور الجميلة . وعلى الرفوف عدد من الفناجين والاكواب الزجاجية وعلى رف آخر بعض الكتب . وفي المطبخ الصغير رف فوقه عدد من الأواني والصحاف اللامعة . لقد كانت هذه الغرفة الصغيرة الضيقة تبـدو في نظرى كقصر منيف بما



بيت الطفولة فى (أودنز)

تضيفه على روحى من ضروب التسلية والامتاع • وكانت اللوحات التى تمثل بعض المناظر الطبيعية تعادل ـ بالنسبة لى ـ معرضا كاملا من معارض الفنون الجميله » •

ذلك هو الاطار الذى أحاط بطفولة هانز كريستيان أندرسن كماصوره بنفسه ، وبالنظر الى الاوصاف التى ذكرها أندرسن لوالديه نجد أن بعض الملامح التى تميزت بها شخصية أندرسن الأب قد تسللت الى طبيعة الابن فلقد كان الاب غير موفق فى حرفته كما أنه فشل فى مواصلة الدراسة ، ولم يكن اجتماعيا بطبعه بل كان ميالا للعزلة ، فكان يهرع كل يوم أحد الى الغابات حيث يجلس صامتاً مستغرقا فى تفكير عميق • على أنه برغم ذلك كان يولى ابنه جزءا كبيرا من وقته وحبه فيقرأ له روايات (لافونتين) وشعر شيكسبير ، وقصص الف ليلة وليلة وهزليات (هولبرج) ، وكان يصنع له اللعب التى كان يلهو بها •

وبينما كانت أمه اجتماعية بطبعهـا ، تميل الى التعرف الى الجيران ، متواضعة لا تعرف معنى الكبرياء ، كان أبوه الاسكافى مترفعا مكرسا جل وقته وعواطفه لابنه الصغير وكان مفعم النفس بالآمال والأحــلام دائم الشرود والقلق •

والتحق الأب بالجيش متطوعا عام ١٨١٢ • ويعزو الابن هذا التصرف

من والده الى التحمس الخيالى لنابليون ، ولكن يبدو أن العامل المادى كان له أثره فى اتخاذ هذا القرار من جانب الوالد ٠

وفى عام ١٨١٤ عاد الوالد مريضا محطما ثم مات بعد ذلك بعامين ، وكان هانز حينئذ قد بلغ الحادية عشرة من عمره ٠ وتبدو الأم ـ من أوصاف ابنها ـ امرأة بدينة تنتمى الى الطبقة العاملة ٠ وبينما كان أبوه متأثرا بروح العصر بما تتسم به من معالجة عقليه للمسائل الدينية ، كانت الأم غارقة فى موجة من الخرافات والروحانيات ٠ وبينما كان الأب حالما شاردا كانت الأم واقعية فى أمور الحياة اليومية ، وقد ترك لها أمر ادارة البيت ، وكثيرا ما كانت تستعين على ذلك بغسل الملابس فى البيوت ٠

وكان لهانز جد مصاب بالجنون مما جعل الطفل هدفا سهلا لسخرية الغلمان وتهكمهم ٠

ويتحدث هانز عن طفولته فيقول : « لقد كنت طفلا كثير الشرود وكنت أهيم فى الطرقات وقد أغلقت عينى حتى اعتقد الناس أن نظرى ليس على ما يرام برغم أنه كان وما يزال حادا لدرجة غير عادية » ٠

وأكثر ما كان يبهجه الجلوس وسط الاشجار تحت الخيمة التى صنعها من أحد أثواب أمه ٠ وكان يتابع بشغف زائد نمو الأوراق الخضراء منذ ظهورها الى أن تسقط صفراء جافة ٠ وأحيانا كان يهرع الى (طاحونة القس) حيث يجلس ساعات طويلة ويحملق فى المياه المندفعة فوق عجلات الطاحونة الهائله ٠ وكان وهو جالس فى هذا المكان يسرح بخياله فى امبراطورية الصين التى اعتقد أنها فيما بعد النهر ، وفى الامير الذى سيأتى ليصطحبه الى امبراطوريته ٠ ولقد أكد هانز كريستيان اندرسن فى مذكراته الدور الذى أدته الخرافات والاساطير فى تكوينه الفنى ، ولا ريب فقد عاش طفولته فى جو مشحون بتلك المعتقدات ، وزاد من حساسية الطفل ما كان يلمسه من فقر ومرض وعجز يظلل الوسط الذى ولد فيه ، كما أن زياراته لجده فى مستشفى الامراض العقلية ملأت عقله بالرعب الذى كان يخشى معه مغادرة البيت بعد غروب الشمس ٠

كل هذه العوامل خلقت من الطفل المرهف انسانا غريب الاطوار وأبعدته عن زملائه فى المدرسة وجعلت أيام دراسته قاسية مريرة ، وخاصة أنه لم يكن ينجو من عقاب أمه لعجزه عن مساعدتها ـ أسوة بسائر الاطفال ـ بالعمل فى أحد المصانع ٠ ولقد حاول الصبى أن ينصاع لرغبة أمه ، ولكن طبيعته الحساسة لم تحتمل ما فى هذه الاماكن من عنت وقسوة وفساد ، فلم يكن يبقى بالمصنع وقتا طويلا حتى يتركه الى آخر للأسباب نفسها ٠

كان البيت اذن خير مكان يجد فيه سعادته ، فهناك فى مقدوره أن يسلى نفسه بمسرح العرائس الذى صنعه أبوه من أجله ٠ ولقد ازداد شغفه بالمسرح منذ أن شهد مع والديه عرضا لاحدى الاوبرات على مسرح (أودنز) ٠ وفى المسرح أحس هانز أنه يشرف على عالم جديد ، ولم يكف هذا العالم عن جذبه من قلب الواقع الذى يعيش فيه حتى لفظ أنفاسه الأخيرة ٠

ومهما حاولنا أن نحرر أنفسنا من الصورة المثالية التى رسمها هانز كريستيان أندرسن لطفولته ، فان هناك صفة واحدة لايمكننا أن نتجاهلها وهى صفة الطفل الحالم ، الطفل الخيالى الذى كان يسعى الى انتشال نفسه من هذا الجو الذى فتح عينيه فوجده مطبقا عليه من كل جانب ، الطفل الذى يثق ثقة لا يتطرق اليها الشك فى العناية الالهية التى سوف ترعاه وتحقق له ما يبغى • ولقد ساعده هذا الايمان فى التغلب على الصعاب التى اعترضته طوال سنى عمره •

وفشلت الأم والجدة فى الوقوف أمام هذا التيار المنبثق من بين حنايا الغلام ، ويئستا من توجيهه الوجهة التى تبغيانها ، وبعد أن تزوجت الأم مرة أخرى سنة ١٨١٨ أخذ هانز يبحث عن الأجواء التى تساعده على تحقيق أحلامه •

وسمع فى بيت السيدة (بنكفولد) ـ احدى الجارات الجدد ، وكانت مثقفة ـ كلمة «الشاعر» تتردد على الألسنة بشىء من الاطراء والتعظيم • وفى هذا البيت رأى هانز من الكتب أكثر مما كان يدور بخياله ، فأخذ يستعير منها ما يشاء• وكان أكثر ما يجذبه الى هناك هو العطف والتشجيع اللذين لم يعرفهما بالمدرسة أو فى أى مكان آخر • وأخذ ينصت بأذن واعية الى قراءات السيدة « بنكفولد » التى حوت الفنون الادبية كافة وبخاصة الشعر والمسرح •

وأكثر هانز من التردد على بيت السيدة (بنكفولد) ووجد لديها الرى الذى كانت تتوق اليه نفسه العطشى ، وبدأ يدرك أنه لكى يكون عظيما «مشهورا» فلا بد له من أن يصبح شاعرا • كما تفتحت أمام روحه نوافذ كثيرة على العالم الأثير لديه ـ عالم المسرح ـ وما أن أحس بأن الطريق قد بدا واضحا حتى قر قراره بسرعة فيما يتعلق بمستقبله وهو أنه لن يحقق أيا من آماله اذا ما بقى فى أودنز ، وأنه لن يصبح «مشهورا» الا اذا سافر الى كوبنهاجن •

وفى اليوم الأول من سبتمبر عام ١٨١٩ ودع هانز أمه وجدته ورحل نحو المجهول ، ولم يكن معه سوى بضعة شلنات وحصيلة من تجارب الطفوله •

***

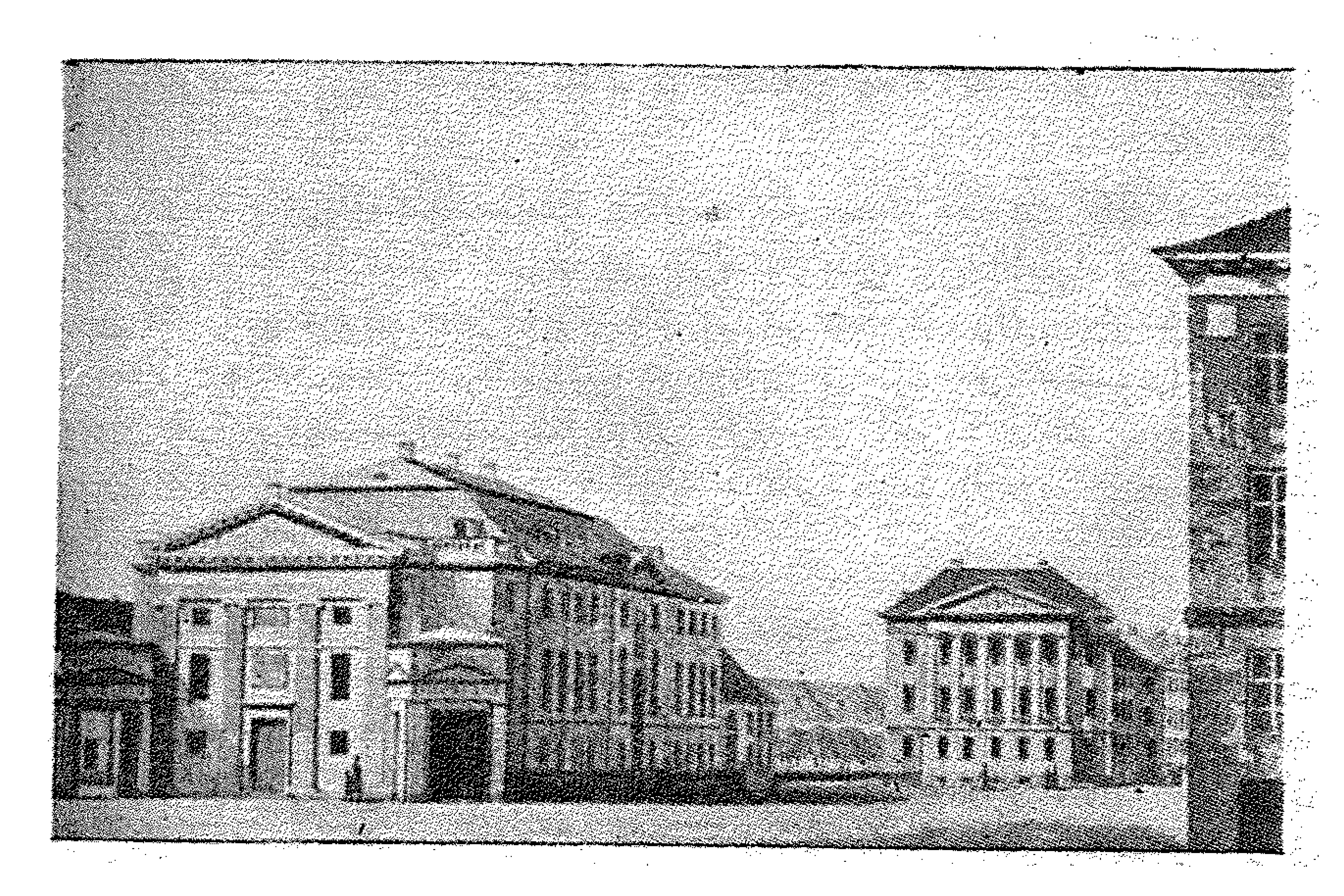
السنوات الأولى فى كوبنهاجن :

ترك هانز كريستيان أندرسن مسقط رأسه الى كوبنهاجن التى لم يكن يعرف فيها أحدا سعيا وراء آماله وأحلامه ، فلا غرو اذا وجدناه يناضل بكل قوة حتى لا يضطر الى العودة الى أودنز مرة أخرى ، فالموت كان أهون عليه من ذلك •

وكان للدانمرك فى تلك الفترة مسرح قومى له فرقته الخاصة من الممثلين وملحق به معهد للغناء والموسيقى المسرحية ومعهد لرقص الباليه كلها تستكمل مواردها المالية من خزانة الدولة • وكان هذا سببا مباشرا

في نهضة الآداب والفنون فيها . فلم يكن يمثل على خشبة هذا المسرح الملكي الا أحسن ما تنتجه قرائح الكتاب والمؤلفين والشعراء ، ولا يقوم بالتمثيل والغناء والرقص فيه الا أفضل الممثلين والمطربين والراقصين والراقصات ، ولا يرسم له المناظر الا أنبغ الرسامين .

وهكذا كان هذا المسرح هو المركز الذى ينجذب اليه الفنانون والأدباء من جميع أنحاء الدولة ، ولكنه فى نظر هانز كان أسمى وأقدس من هذا .. كان كعبة يضرع الى الله أن يحقق له الآمال فى أن يصبح أحد حجاجها المخلصين .



المسرح الملكي بكوبنهاجن

وقبل أن يرحل أندرسن استطاع الحصول على خطاب توصية من (افرسن) وهو صاحب مطبعة فى أودنز الى مدام (أسكال) راقصة الباليه بالمسرح الملكي . وذهب هانز لزيارتها وأوضح لها رغبته فى اعتلاء خشبة المسرح ، ثم طلب منها السماح له بعرض شىء من فنه واندفع يخلع حذاءه ويرقص لها رقصة من (سندريلا) ، وكان قد رأى مدام اسكال تقوم بهذا الدور عندما انتقلت فرقة التمثيل بالمسرح الملكي الى مدينة أودنز ، وخطر له أن قيامه بهذا الدور سوف يرضيها ، ولكن المنظر كان كفيلا بأن يصيب السيدة بالذهول والرعب اذ أن اندرسن كان يتكلم بصوت مرتفع ويأتي بحركات مهولة وتعبيرات للوجه رهيبة ، وكان يثب بالغرفة وثبات تهز أركانها . فظنت السيدة (اسكال) أن بالفتى مسا من جنون ، وما كان منها الا أن أمرته بالتوقف ثم طردته من بيتها على الفور .

ولم يتطرق اليأس الى هانز بعد هذه الصدمة برغم انها هزته هزا

عنيفا • وكان اقرسن المطبعى قد أخبره بالتوجه الى مستر رايبك ـ أحد مديرى المسرح ـ اذا لم يوفق لدى مدام اسكال ، فنفض هانز الاحساس بالالم وبدأت الآمال تنتعش فى صدره حين قرر أن يعمل بهذه النصيحة • على أن تلك الآمال انهارت جميعا من أساسها بعد خمس دقائق من مقابلته لمدير المسرح الذى طرده شر طردة أيضا •

ووجد هانز نفسه خاوى الوفاض بعد أن نفد آخر شلن فى جيبه ، وكان عليه بعد الاسبوعين اللذين قضاهما فى المدينه الكبيرة ـ دون جدوى ـ أن يختار بين أمرين : اما أن يعود أدراجه أو يعمل صبيا فى احدى الحرف • وكان قد انتوى بينه وبين نفسه الا يعود حيا الى أودنز ما لم يحقق الآمال التى غادرها من اجلها •

وفى ١٨ من سبتمبر قرأ فى احدى الصحف اعلانا يطلب فيه أحد النجارين فتى فى مثل سنه ، فسعى اليه ولكنه أدرك منذ اليوم الاول أن الجو المحيط به هو الجو العفن الذى كان يخنق أنفاسه فى مصانع أودنز: القسوة نفسها وسوء الخلق نفسه فأسرع هاربا برغم الجوع والافلاس اللذين ينتظرانه خارج الباب •

وترك هانز محل النجار ، وذهب فى اليوم نفسه يطرق الباب على (سيبونى) المغنى الايطالى فى المسرح الملكى • وبرغم أن سيبونى كان يستقبل ضيوفا فقد أمر لحسن حظ أندرسن ـ بادخال الفتى • ووجد أندرسن نفسه وسط باقة من قادة الحياة الثقافية فى الدانمرك: (سيبونى) المغنى الاول والموسيقار الكبير (وايز) ثم الشاعر الملهم (باجيسين) •

ويبدو أن العناية الالهية التى لم يكن أندرسن يشك فيهـا لحظة واحدة كانت على موعد مع الفتى المؤمن لتفتح له ـ ولأول مرة منذ قدومه الى كوبنهاجن ـ بابا واسعا نحو المجد ، لقد كانت تلك الزيارة التى قام بها أندرسن وهو يتأرجح بين اليأس والأمل من نقط التحول الهامة فى تاريخ حياته ، فقد استطاع الفتى ذو الاربعة عشر عاما أن يلتقى بالعالم (بفتح اللام) الذى طالما كان يحلم به • ولم تنته تلك الزيارة الا بعد أن وعده (سيبونى) بتدريبه على الغناء ، ومنحه (وايز) بعض النقود التى كانت عونا له لفترة ليست قصيرة •

على أن الطريق لم يكن مفروشا بالورود من أوله ، بل لقد واجهت هانز عدة صدمات متواليه • كانت أولى هذه الصدمات اعتذار سيبونى عن الاستمرار فى تعليمه الغناء لانه لم يجد لديه الموهبة التى يمكن أن تخلق منه مطربا ، فضلا عن أن برد كوبنهاجن القارس ، الذى لم يستطع هانز أن يحصن نفسه ضده ، قد أصاب أوتار صوته فضاع بذلك آخر أمل له فى هذا المضمار •

.. ولم يترنح هانز تحت هول هذه الصدمة ، بل اتجه بعناد واصرار غريبين الى التمثيل بعد أن جرب حظه في الغناء • واستطاع بعد لأى أن يجد من يسند اليه بعض الأدوار الثانوية ، ولكن (لندجرين) الذى كان يقوم بتدريبه على التمثيل قال له بعد عام ونصف العام : « لا شـك أنك تنطوى على احساس مرهف ، ولكنك لم تخلق لتصبح ممثلا ـ السـماء وحدها هى التى تعلم ما خلقت له » • وفى مايو سنة ١٨٢٢ فصلته ادارة المسرح •

وهكذا بدا الطريق الى المسرح مغلقـا فى وجهه •• فانكفأ يسترجع هوايته القديمة التى لزمته منذ الطفولة ، وهى الكتابة وقرض الشعر • وبحث فى حاجاته عن بطاقة أبيه الخاصة بصرف مكافأته عن مدة خدمته بالجيش ، وكان هانز قـد دون فى تلك البطاقة قائمة بما سيؤلفه فى المستقبل من القصص والروايات • ولما لم يكن قد ألف المسرحيات نفسها فقد كان يكتفى بقراءة أسمائها بصوت مرتفع لكل من يجد لديه استعدادا للانصات •• وكان ينظم الشعر أيضا •

وفى الدأب والمثابرة نفسيهما استمر يسعى نحو « المجد والشهرة » ووسيلته ـ فى هذه المرة ـ الشعر والأدب ، فكتب سنة ١٨٢٢ مسرحية (لصوص فيزنبرج) التى بنى فكرتها على بعض العقـائد الشعبية التى لسها فى مسقط رأسه ، وقدم هانز هـذه المسرحية الى مديرى المسرح الملكى الذين أعادوها اليه مع الخطاب التالى :

الى مؤلف المسرحية ...

نعيد اليك مسرحيه (لصوص فيزنبرج) لعدم صلاحيتها للمسرح ، وان الرقباء الرسميين يحبون أن يخطروا المؤلف ـ بسبب ظروفه الخاصة ـ أن كل صفحة فى مسرحيته دليل على مبلغ جهله بالمبادىء الأساسية للعلم والثقافة ، فمن المستحيل تماما على أية عبقرية انسانية أن تقدم مثل هذه المسرحية الى جمهور مثقف على خشبة المسرح ، وأنهم يشعرون بالسرور اذا أدرك المؤلف الشاب أن الواجب يحتم عليه الاستعانة بأصدقائه لمواصلة الدرس والتحصيل ، والتزود من نبع الثقافة التى بدونها لن يستطيع أبدا أن يحقق الهدف الذى يسمو اليه » •

والواقع أن المشكلة الاساسية فى حياة أندرسن كانت فى تلك الفترة هى النقص الشديد الذى يعانيه فى التعليم المنهجى المنظم • ان اندرسن حتى ذلك الحين لم يبق بأية مدرسة شهرا كاملا ، وكل ماكان ينظمه من اشعار أو يكتبه من قصص ومسرحيات كان بأسلوب ردىء وبطريقة فطرية زاخرة بالأغلاط • لم يكن أندرسن حتى ذلك الوقت يستطيع أن يتهجى أو يكتب بضع كلمات كتابة صحيحة ، أو يقـوم بأصغر عملية حسابية برغم أنه كان يلتهم أى كتاب يقع فى يده ويحفظ عن ظهر قلب صفحات عدة منه ومناظر كاملة من المسرحيات •

ولم يستسلم أندرسن لخيبة الأمل التى أصــــابته بعد قراءة ذلك الخطاب ، وسرعان ما تنبه الى الاخلاص الكامن بين سطوره والى روح العطف والاهتمام التى تختفى وراء كلماته برغم القسوة التى قد تبدو فيها للوهلة الأولى .

وجدت النصائح أخيرا صدى فى نفســـه ، كما لمس مديرو المسرح الحرة التى غرق فيها الصبى بعد أن حفيت قدماه وهو يطرق أبوابهم دون مايأس أو ملل ، فانعطفت قلوبهم اليه . وتحمس له أحــــد المديرين وهو (رايبك) أعظم النقاد فى ذلك الوقت ، فأوصى باتاحة الفرصـــــة بتعليمه وتثقيفه . وقام المستشار (جوناس كولين) وهو من مديرى المسرح أيضا بالتوسط لدى ملك الدانمرك الذى وافق على تزويده بالثقافة اللازمة . وأخبره كولين أنه سيرسل اليه فى كل أسبوع مبلغا خاصا ليشترى منه بعض الملابس والكتب ويحتفظ بالباقى لنفسه ، وأنه سيتعلم بالمدرسة الثانوية بمدينة (سلاجلس) بالمجان . ذهب هانز كريستيان أندرسن الى (سلاجلس) ليجلس ــ وهو فى السابعة عشرة من عمره ــ بين تلاميذ الفرقة الأولى بالمدرسة الثانوية .

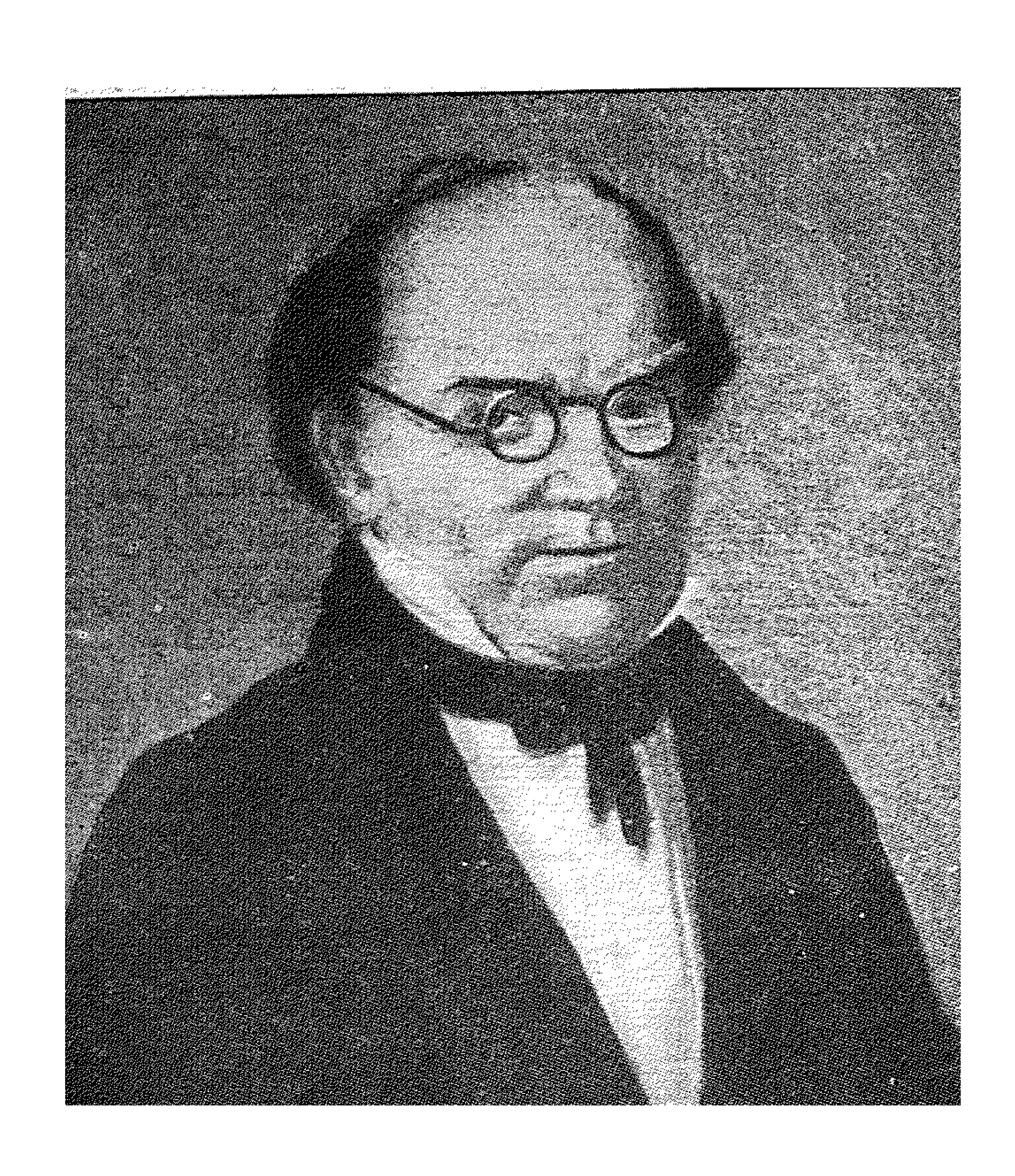
***

أيام الدراســـــة :

قبل أن يصبح هانزكريستيان أندرسن تلميذا فى مدرسة سلاجلس كان (سيمون ميسلنج) قد عين ناظرا لتلك المدرسة ، وكان ميسلنج ذا شخصية متناقضة غريبة الأطوار ، فالى جــــانب كفايته كمدرس كانت تصرفاته تتسم بالقلق والتوتر والخشونة ، كانت له ــ باختصار ــ عقلية العالم وطباع الحيوان الشرس . ولم يكن هانزكريستيان أندرسن يدرى أنه مقبل فى علاقته الجديدة مع النــــــاظر ميسلنج على صفحة من أحلك صفحات حياته .

الحق أندرسن بالصف الثانى من المدرسة ، وفى أول يوم من أيام الدراسة وجد نفسه فى وضع عجيب ، لقد كان أطول تلميذ من زملائه لا يصل برأسه الى مرفقه .. حتى انه كان يبدو بينهم بطوله الفارع مثل (خيال المآتة) وسط عيدان القمح الهشة . وليت الأمر وقف عند هــذا الحد ، فانه كان ــ وهو بهذه الهيئة ــ يضرب أخماسا فى أسداس ويتلجلج لسانه عند أبسط الكلمات وأسهل المسائل الحســـــابية التى كانوا هم يحلونها بعقولهم الغضة فى لمح البصر . لقد كان عقله خاليــــا تماما من أصغر البديهيات والمعلومات الأولية .

ويصف هانز الأيام الأولى بالمدرسة قائلا : « كانت رغبتى للعــــلم موفورة ، ولكننى كنت فى أول الامر أتعثر وكأننى غريق فى بحـــــر ، ترفعنى موجه ، وتهبط بى أخرى ، قواعد اللغة .. الجغرافيا .. الحساب ،



سيمون ميسلنج

وكان الموقف عصيبا ، فان عليه أن يعمل بأقصى ما يمكن لكى يلحق بهؤلاء الصغار الذين شاء القدر أن يصبحوا زملاء له ، وبرغم أن (ميسلنج) لم يكن يلجأ الى العقاب الجسمانى لم تكن تعوزه الحيلة التى ينكل بها بكل تلميذ لايروقه • ولقد غدااندرسن قبل مضى وقت طويل هدفاً لسـخرية الناظر ونكاته اللاذعة التى كان يدمى لها قلبه الصبى المرهف •

ولم يستطع هانز أن يدرك سر تحامل الناظر عليه وكراهيته له • والواقع أن (مسيلنج) كان يحسد الصبى ـ وهو التلميذ الصغير ـ على مايلقاه من رعاية مديرى المسرح الملكى له وعلى اتصاله بأهم رجـالات كوبنهاجن ، مما كان لا يحلم به الناظر نفسه •

ومضت به الأيام عاصفة مفعمة بالكفاح ، الكفاح من أجل رسالته الجديدة ،والكفاح ضد السيطرة القاسية التى سادت حياته فى (سلاجلس) وأخذ هانز يكتب الى مستر كولين ـ الذى كان له بمثابة الأب الروحى ـ عن تقدمه فى الدراسة • والواقع أنه كان يبذل جهدا فائقا تدفعه عزيمة جبارة : « حتى لا يظن أنى أضيع أموال الحكومة عبثا » •

وكانت حياة أندرسن في تلك الفترة خليطا من السعادة والبؤس ، فقد كان منتهى سعادته أن تنفرج له شفتا مستر ميسلنج عن ابتسامه صغيرة ، أو تبدر منه كلمة عطف واحدة ، على حين كان يسقط في وهدة الشقاء اذا ما انهال عليه ميسلنج بلسانه السليط ٠

وكتب أندرسن في مذكراته يقول : « لقد قال لى الناظر « مساء الخير» ٠٠ اه لو دن يعلم الى اى مدى شجعنى أقل امارات عطفه ٠٠ كانت سترة الناظر مغبرة ، فطلب من الخادم احضار (الفرشاة) ولكنها لم تحضر ، فهرعت الى تنظيفها بنفسى ٠٠ » ٠ ومن جراء هذه الأيام المشحونة بالقلق والخوف والمهانة فان ثقته بنفسه التى أطلقته كالصاروخ الى قلب أرقى الأوساط الاجتماعية والثقافية فى كوبنهاجن ـ هذه الثقة تحطمت تحت الضربات القاسية التى تلقاها فى (سلاجلس) ٠ وغدا يحمل بين جنبيه نفسا مهلهلة تعسة ٠

وحتى عام ١٨٢٥ كان هانز يعيش في بيت أرملة في سلاجلس ولكنه انتقل بعد ذلك ليعيش فى بيت ميسلنج ، لأن السيده ميسلنج ادر ت الفوائد المادية التى تكمن وراء سكنى هانز معهم . ولم يشأ هانز أن يرفض هذا الطلب من الناظر ، وخاصة أنه كان يأمل أن يكون مثل هذا الاجراء بداية مرحلة جديدة من تبادل الثقة بينهما ٠ ولكن لما كان بيت الناظر ليس كبيرا الى الحد الذى يسع معه ضيفا جديدا فان انتقال هانز اليه لم يساعد الا على زيادة تعقيد حياته ٠

على أن أيامه في سلاجلس لم تكن تخلو من بعض الهناءة ، فبفضل مقدرة أندرسن الفائقة على ربط الوشائج والصداقات تعرف على الشاعر (انجمان) الذى كان يقوم بالتدريس بجامعة (سورو) القريبة من سلاجلس ٠ ووجد هانز فى بيت (انجمان) مرفأ الأمان الذى كان يلجأ اليه هربا من حياته العاصفة فى البيت والمدرسة ٠

وبالاضافة الى ذلك كان فى مقدوره أنيقضى عطلاته خارج سلاجلس فقد ذهب الى أودنز سنة ١٨٢٣ وأقام فى ضيافة (افرسن) المطبعى ، وكان أثره على الجميع هناك كبيرا اذ بدا لهم شخصا آخر غير ابن الاسكافى الذى كان متهما بالجنون ٠ وفى عطلة عيد الميلاد سنة ١٨٢٣ سافر الى كوبنهاجن وقضى بها أسبوعا ضيفا على الكابتن وولف المترجم المشهور ٠ وكان وهو واقف فى شرفة القصر مطلا على الميدان الكبير يحس كأنه فى حلم لذيذ قصير سوف ينهض منه فزعا ليرى أمامه مستر (ميسلنج) البدين ذا الوجه الأحمر المكتنز والظل الثقيل٠ وكان يتردد كثيرا فى تلك العطلة على منازل كولين ورايبك ويشهد الروايات التمثيلية على خشبة المسرح الملكى ٠٠

وفى ربيع سنة ١٨٢٦ نقل الناظر الى (السينور) ، وأخذ يغرى هانز بالذهاب معه واعدا آياه باعطائه دروسا خاصة فى اللغتين اليونانية واللاتينية ليعاونه على اجتياز الامتحان ـ ولم يجد هانز بدا من الذهاب ٠

على أن بقاءه فى السينور لم يكن سوى آمتداد لمرحلة العذاب التى

كان غارقا فيها في سلاجلس · فبالاضافة الى شراسة الناظر وسوء معاملته لأندرسن فان الجشع استبد بزوجة الناظر وأخذت تتذمر من ضآلة المبلغ الذى يدفعه لهما الصبي نظير اقامته ، وأصبحت لا تضع له الا قدرا يسيرا من الطعام لا يكفي اقامة أوده · كما أنها حرمته وسائل التدفئة التي تحمي جسده النحيل من البرد القارس · وكتب هانز الرسالة تلو الأخرى الى مستر كولين يرجوه أن ينقذه مما هو فيه ، ولكن كولين اعتقد أن هانز يبالغ بعض الشيء فيما ذكره · ثم تصادف أن لمس أحد المدرسين عندما زار هانز مرة مايلقاه الصبي من عنت واضطهاد ، فلم يملك الا أن يبعث برسالة عاجلة الى مستر كولين يصف له فيها الجو الذى



مستر كولين

يعيش فيه هانز ، فأرسل مستر كولين لهانز يأمره بالرحيل فورا من السينور . وفي ابريل سنه ١٨٢٧ ودع اندرسن (ميسلنج) وانتقل الى كوبنهاجن حيث وضع تحت الرعاية الخاصة . وفي اكتوبر سنة ١٨٢٨ اجتاز الامتحان النهائي .

وكان كولين يعرف ماجبل عليه أندرسن من ميل طبيعي للكتابة ، فحاول ان يحضه على الالتفات الى دراسته وترك الكتابة بعض الوقت . ولكن ذلك الطلب كان أمرا صعبا بطبيعة الحال ، فالكتابة بالنسبة لاندرسن كانت تصرفا غريزيا لا يجدى معه النصح ولا التحذير . ولقد أخرج اندرسن أيام المدرسة عدة قصائد لعل اهمها قصيدة (الطفل المحتضر) التي لاقت استحسانا كبيرا بعد أن نشرت بدون توقيع فى صحيفه (ذى كوبنهاجن ميل) سنة ١٨٢٧ . ولقد كانت هذه القصيدة صادرة من أعماق نفسه اذ كتبها فى تلك الأيام الحافلة بالألم والبؤس والشقاء التى أمضاها تحت سقف بيت ميسلنج . ويقول الدارسون : انها أول شيء كشف عن روح الشاعر الكامنة بين جنبى هانز كريستيان اندرسن ، والقصيدة منشورة فى مكان آخر من هذا الكتاب . (انظر الفصل الرابع) .

وما ان أفلت اندرسن من تحت سيطرة ميسلنج حتى بدأت شخصيته تتغير تغيرا ملحوظا ، وانطلقت نفسه من عقالها وألقى عنه رداء البؤس وفتح قلبه للحياة . وكان أول ثمرة أخرجها فى تلك الفترة كتاب (رحلة على الأقدام من قناة هولمز الى الجانب الشرقى من أماجار) وهو عبارة عن مجموعة من الأشعار المرحة وأخلاط من الأفكار والخواطر .

وفى سنة ١٨٢٨ كتب أولى مسرحياته (غرام فوق برج القديس نيقولا) وقد عرضت هذه المسرحية على خشبة المسرح الملكى فى أبريل سنة ١٨٢٩ . وأحس هانز بعد هذه الأعمال المتوالية أنه خلق ليكون شاعرا ، وحالت طبيعته القلقة وعقليته الخيالية دون احساسه بالمقدرة على الاستمرار فى الدراسة .

وفى صيف ١٨٣٠ قرر اندرسن ان يشد عصا الترحال الى ربوع الدانمرك بادئا جولته بزيارة أودنز مسقط رأسه حيث أمضى أياما ممتعة فى ضيافة المطبعي العجوز افرسن ، ثم عرج على جزيرة جوتلاند حيث التقى بالمؤرخ الشهير (سيمونز) ليستعين به على كتابة رواية عن قبائل الغجر وتاريخهم . وواصل اندرسن رحلته بعد ذلك الى مدينة (فابورج) وهى بلدة صغيرة على شاطىء البحر بالجزء الجنوبى الجميل من جزيرة (فونين) . وفى هذه المدينة ــ حيث كانت تقطن أسرة زميل له ــ عاش أندرسن تجربة لم تبرح ذاكرته مدى الحياة ، فقد كان لزميله هذا ، وهو ابن أحد التجار بالمدينة ، شقيقة بارعة الجمال لطيفة المعشر تدعى (ريبورج) . وما كاد اندرسن يراها ويتحدث اليها حتى غرق فى حبها لأذنيه .



ريبورج

وفي متحــف هانزكريستيان أندرسن مجموعة من الذكريات التى تسجل هذه الحادثة : فهناك باقة من الزهر مدون عليها بخط ريبورج ان اندرسن قدمها لها فى أغسطس سنة ١٨٣٠ كما ان هناك أيضا مجموعة كبيرة من القصائد الغنائية التى بعث بها أندرسن لريبورج والتى كانت ارهاصا جديدا لشاعر مرهف الحس بعد قصيدته الرائعــة « الطفل المحتضر » وما زال النقاد يعتبرون قصائد : «عينان عسليتان» و «أحبك» وغيرهما من قمم الشعر الدانمركى حتى الآن .

وكانت ريبورج مخطوبة لابن صيدلى بالمدينة ، ولكن يبدو أن الفتاة

قد أعجبت باندرسن وبهرها حديثه عن نفسه وآماله وما ينتظره من مجد وشهرة .. ولعل أكبر دليل على تعلقها به هو العناية والحرص الشديدان اللذان أولتهما كل مايذكرها بالشاعر الشاب .

وسرعان ما قرر أندرسن العودة .. وأخذ يعمل على تناسى الصدمة التى منى بها قلبه ، فكتب مسجلا الحادثة في مذكراته : «لقد كان غباء مني وأنا الرجل الفقير أن أقع فى الحب . لا مراء فى أن لديها ثروة تكفينـــا معا . ولكن ماذا كان الناس سيقولون عني ؟ »

ولقد التقى بريبورج عدة مرات بعد ذلك وكتب بعد احدى هـــذه المرات : « ان الذكريات لحبات العنبر الأصيل كلما حككتها أرسلت من عطرها القديم شذا » . وكانت آخر مرة لقيها فيها فى سنة ١٨٤٣ عندما كان نجمه في صعود . وعقب ذلك اللقاء عاد الى البيت وكتب قصة «الكرة والخذروف » التى كانت « وداعا ساخرا لغرام صباه » . (انظر الفصل الثالث)

وفى سنه ١٨٣١ قام بأول رحلة له الى الخـارج ، فسافر الى ألمانيا حيث وجد عالما أرحب وأكبر ، وتجول في أبهـــاء الكاتدرائيات الفخمة المشيدة على الطراز القوطى . وهنا فى هذا الجو الجديد استعاد انبساطه وثقته اللذين ساعداه على ربط الوشائج واكتساب صداقات جديدة مثلما كان في كوبنهاجن . فسرعان ماغدا صديقا لادلبرت فون شاميسو الكاتب الألماني وقد كانت نتيجة هذه الرحلة كتابا أسماه « أطيـــاف وصور » سنة ١٨٣١ .

على أن الفترة مابين سنتى ١٨٣١ و ١٨٣٣ كانت من الفترات الحرجة بالنسبة لأندرسن ، فان المرح الدافىء الذى كانت تتسم به شخصيته فى السنوات الماضية كان قد زايله ، وأخذت تظهر فى خطاباته أمـــارات الوحدة والكآبة : ففي خطاب له الى صديقه ادوارد نجل (كولين) سنة ١٨٣٢ ــ وكان فى أودنز حينئذ ــ كتب يقول :

« الناس حولى يبذلون كل ما في وسعهم لارضائى ، فأكبر العائلات تمنحنى كل اهتمام ورعاية ، ولكن لافائدة . ولست امرأ شـــاذا يهوى أن يكون ساخطا ، فانني أتمنى أن أكون سعيدا ، ولكنني لاأستطيع مطلقا أن أستعيد السعادة والمرح اللذين عرفتهمـا فى صباى » وبعد ذلك بستة شهور كتب يقول : « لقد طرأ على حياتى كثير من الاحداث فى غضون العام الماضي فاما ان أتغير الى الافضل ، والا فقد ضاع كل شيء . ان حياتى كشاعر لم تكن سوى نجم منطلق سوف يطويه النسيان فى أسرع وقت . »

ويقول مرة « لقد كنت أقف وحدى منذ أن كنت طفلا حتى الآن » . ويقول مرة أخرى فى خطاب له الى مستر (كولين) : « مهما كان عطف الناس على فسأظل «مقطوعا» .

وكان يكمن وراء كل هذه الخواطر احساسه بعدم الاستقلال ، وخوفه من أن يشعر الذين مدوا له يد المساعدة بخيبة الأمل فى كل ما فعلوه من أجله ، الخوف نفسه الذى لازمه كالغصة فى الحلق طوال أيام دراسته . وفى أثناء تلك الفترة أخذت تحتل أفكاره (لويز) ابنة مستر (كولين) ، فكان يبعث لها ببعض الرسائل والقصائد الغزلية ، ولكن شقيقتها (انجبرج) طلبت منه أن يكف عن ارسال مثل هذه الأشياء لأن هذا لا يتفق مع ما أخذت به العائلة نفسها من تقاليد . ولقد كان هانز يريد أن يمر بتجربة تلهبفكره وخياله وتوحىله ببعض الانطباعات التى لا يستطيع الفنان أن يعيش بدونها .

وتمكن أندرسن من الحصول على منحة يستطيع بها القيام بعدة رحلات الى الخارج ، فأعد خطة لزيارة فرنسا وايطاليا .

واستطاع وهو يضرب بين ربوع البلاد أن ينظر الى حياته الصاخبة التى جرت أحداثها على أرض وطنه ، وأن يجتر أفكاره واحساساته وكانما كان ينظر الى نفسه من بعيد ، وخرج من كل ذلك بأعجب ترجمة ذاتية . وطبع الكتاب لاول مرة بعنوان « كتاب حياتى » وقد كان يقصد من الكتاب أن يكون وصيته الأخيرة ، فثمة فكرة أخذت تحتل ذهنه منذ أن غاب عن ناظريه شاطىء الدانمرك والسفينة تمخر به عباب المحيط ، وهذه الفكرة هى أنه سوف يموت خارج البلاد . وحتى يتسنى للخلف انفرصة الحقيقية لفهم حياته وأعماله كتب اندرسن ذلك الكتاب . واعتقد الناشر أن الكتاب مقصود به (لويز كولين) والواقع أن أندرسن كان يعنىبه أن يكون ذخرا للاجيال المقبلة. لقد كان الكتاب اعترافا . « اذا ما مت وأنا خارجالبلاد فذكر ادوارد أن ينشر ذكرياتى .. ان مابيدك هى أفكارى « الأخيرة » .

***

رحلاته وقصصه الأولى :

بدأ اندرسن رحلته الاولى فى أبريل سنة ١٨٣٣ بزيارة باريس ومنها سافر الى سويسرا ، وعن طريق ميلانو وجنوا ثم فلورنسا وصل روما فى اكتوبر من العام نفسه . وبقى فى ايطاليا ستة أشهر كان يتنقل فيها بين بلدانها المختلفة .

وفى أبريل سنة ١٨٣٤ قفلعائداالى أرض الوطن فوصل كوبنهاجن فى اغسطس بعد أن مر بفينا وبراغ ودرسدن وبرلين ثم هامبورج .

وكان الأصدقاء فى الدانمرك على علم بكل اخباره من الخطابات التى كان لا يكف عن ارسالها لهم ، وكانت الخطابات تختلف باختلاف الاهتمامات التى تشغل أذهان المرسل اليهم . فهو يقول « لجوتليب

كولين » ـ وهو الأخ الاكبر لصديقه ادوارد ـ فى احدى خطاباته ، عن متحف اللوفر : « انه فى الواقع أروع مما يخطر بذهن بشر ! انك تجد كل المعروضات فى قاعة واحدة ، ولكن اى قاعة هذه انها تدير الرءوس ! ويكفى ان أخبرك بأن طولها لا يقل عن الطريق الرئيسى نحو روتشيلد!» اما الى خطيبة « جوتليب » فهو يهمس قائلا : « النساء هنا لسن جميلات الا على ضوء الشموع ، انهن خلقن لصالة الرقص » .

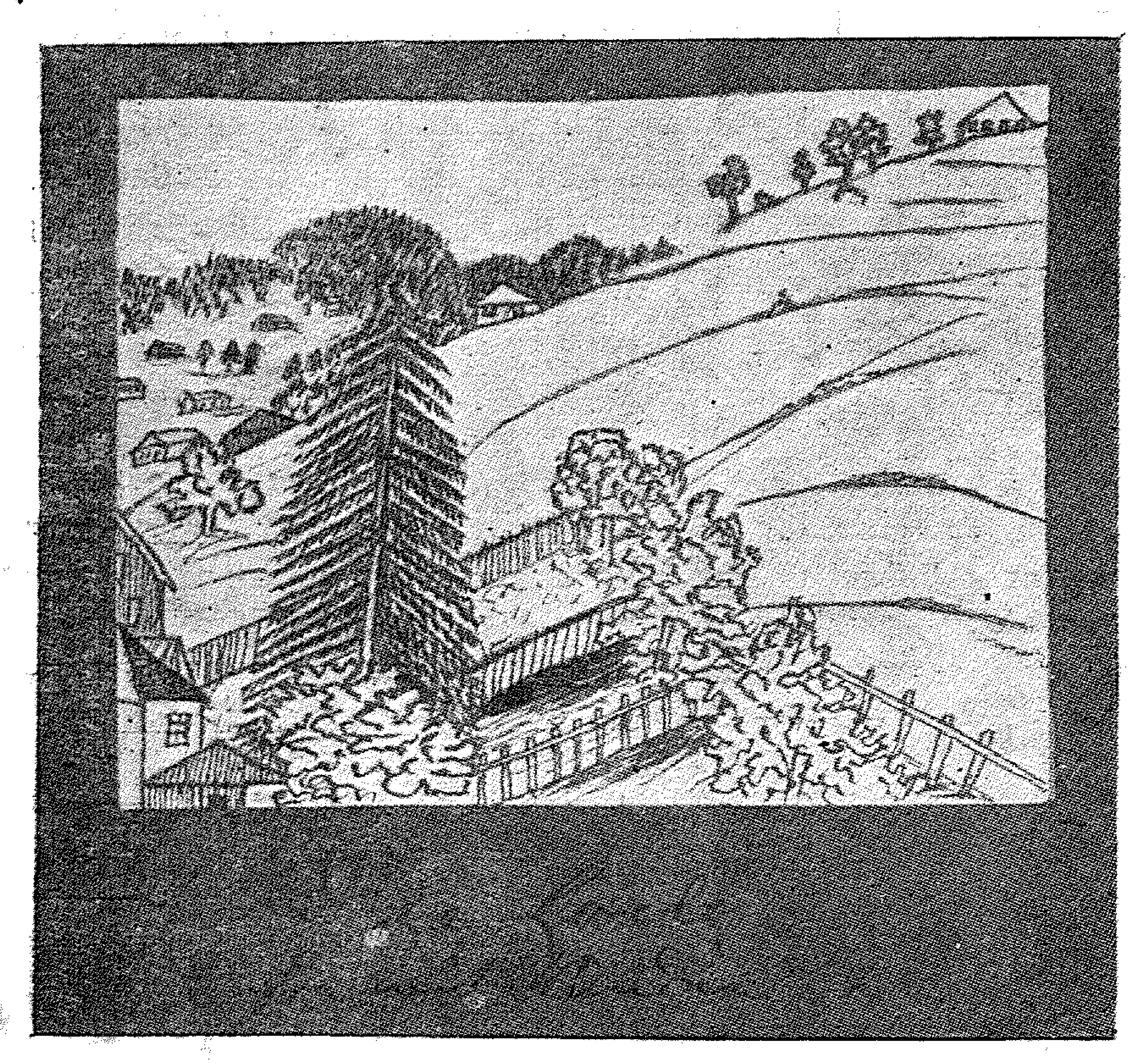
وكان المسرح هو المغناطيس الذى يجذبه فى أى مكان يضع فيه قدمه ، فأخذ يجوب كل المسارح التى يصادفها ، وفى فرنسا تعرف على كتاب المسرح الفرنسيين وبهرته الحياة الزاهية التى تغرق شوارع باريس .. « بجوار كل حانوت حانوت ، ومرآة بعد كل مرآة ، حتى ليخيل اليك انه لو تحطمت واحدة انهارت جميع المرايا فى اللحظة نفسها » .

وبدت له سويسرا أروع وأجمل من باريس . فلم يكن بالدانمرك جبال شامخة ، وقد بدت لهانز جبال الألب حين تفتحت عنها غلائل الضباب ، كأنها أشكال ضخمة تسبح عالية فى الهواء . وقد ظن ، والمركبة تصعد به الى أعلى ، أن غلالة كثيفة من الدخان تقبل عليه وتحيط به ، ولكنه لم يلبث أن تبين أن هذه الغلالة ليست الا قطعا من السحاب ، وقد كانت المركبة تنطلق به فوق مستوى السحب ، وأخيرا « راينا بين فرجات الجبال فى المنحدر البعيد ، منطقة خضراء رائعة .. أرضا كالتى نراها فى الأحلام ، انها جنيف .. وان بحيراتها الجميلة لتبدو فى صفاء السماء وكأنما ماؤها الأزرق ملون «بفرشاة» ، وارتفعت الجبال نحو الافق كأنها أمواج من البلور القرمزى المتوج بالزبد الابيض » .

وغمره جمال الريف الايطالى وتسلل كالأصابع الرقيقة الى قلبه تربت عليه فى حنان ، والى خياله تشحذه وتقويه ، وقد كتب لاحد أصدقائه فى أودنز يصف له ريف ايطاليا بقوله : « ليس فى مقدورك أن تتصور تمازج الالوان والاشكال المتغيرة دواما على مسرح جنوبى ايطاليا ، فعند المساء يصطبغ البحر بلون وردى ، وتبدو الجزر وسطه مثل سحب قرمزية طافية ، أما الجبال فتكتسى بلون بنفسجى رقيق ، والى جانب كل ذلك ينهمر الحمم من فوق قمة (فيزوفيوس) كأنهار من دماء تضوى فى نور القمر » .

وفى روما التقى بالمثال الدانمركى « تورفالدسن » وعقد معه صداقة وثيقة ودخل عن طريقه عالما جديدا كان يستهويه منذ صغره الا وهو عالم التصوير ، فمنذ كان يحلم بالمناظر المصورة التى أوحت بها اليه الصور الملونة البدائية على باب غرفة والديه فى أودنز لم ير لوحات فنية وتماثيل رائعة من أعمال الفنيين العالميين . والآن انتشت روحه وهو يرى انتاج ميخائيل انجلو وبوتيشللى ودافيد . « لقد ذابت الثلوج من أمام عينى وانفتحت أبواب عالم جديد من الفن » .

وتحركت يده بسرعة الفنان الحساس ذى الانطباع السريع وأخذ يصور بريشته كل نبضة حية من نبضات الطبيعة • وقد جمعت رسومه التى يعود أغلبها الى الفترة التى كان فيهـا فى روما ، وهى الآن محفوظة بمتحفه فى أودنز • وقد كتب الى صديقه ادوارد يقول : « لقد رأيت اليوم حمامات شيشرون فرسمتها على الفور .اننى أصبحت الآن اجيد الرسم



من النافذة ـ فى (لولوكل) ـ رسم اندرسن هذا المنظر الطبيعى

الى حد كبير ويغبطنى كل فنانى روما على دقة ملاحظتى ،ولقد رسمت حتى الآن مائة منظـر هى بالنسـبة لى ذخيرة رائعة . آه لو كنت قد تعلمت الرسم من أول الامر ! .

على أن رحلته الى ايطاليا لم تـكن لهوا لاطائل وراءه . فـكتابه «قصائد» ظهر فى سنة ١٨٣٣ فى أثناء وجوده بالخارج • وبعد ظهور هذا الكتاب أخذ اندرسن يتابع فى لهفة وقلق آراء النقاد والادباء فيه . ولقد كتب أحد النقـاد يقول : « ان من الظواهر النادرة فى أدبنا أن تصدر مجموعة من الاشعار تملأ ٣٥٩ صحيفة لاتجد ٢٠ منها تستحق التأمل !»

وفى أثناء وجود اندرسن فى « لولوكل » كان يعمل فى جد ونشاط لكتابة دراما شعـرية اسمها (آجنت والجنى) وكان يريد أن يعبر بها « عن الاشتـياق الغريب الى شىء ما يختلف عمـا فى أيدينا » • وأخذ

يعرب فى خطاباته التى كان يبعث بها الى الدانمرك عن آماله التى عقدها على هذا العمل . وكم كانت الصدمة مدمرة حينما أرسل اليه ادوارد فى ديسمبر سنة ١٨٣٣ يقول له . ان المقطوعة لم تعجب أحدا وان جميع الناشرين يرفضونها .ولكن ادوارد استطاع أن ينشرها بعد أن أخذ يجمع لها الاشتراكات من الجميع ، الذين كانوا يدفعون وهم يقولون : « هل عاد الى الكتابة مرة أخرى ؟ لقد سئمناه منذ زمن بعيد ! » . وكتب مستر كولين لهانز يقول له « انك بمثل هذا الانتاج تخاطر بسمعة أعمالك كلها لدرجة انك لن تجد مكتبة واحدة تتقبل كتبك ولو على سبيل الهدية ! » .

ولم يطب له المقام فى ايطاليا بسبب العاصفة التى استقبل بها النقاد والكتاب كلا من كتابيه الاخيرين . ثم جاءته الانباء تفيد أن أمه قد ماتت فى المستشفى ، فازداد احساسه بالوحدة والبؤس واليأس .

وعلى ضوء هذه الاحاسيس يمكن الحكم على الايام التى قضاها اندرسن فى ايطاليا ، فلقد كانت السنوات بين ١٨٣٠ و ١٨٣٣ سنوات حرجة بالنسبة له .. انه لم يلق حتى الآن سوى النقد القاسى والعداء الشديد والنصائح التى كان يضيق بها ذرعا . لقد كان يشعر من فرط الأسى انه يوشك أن يلقى قلمه فى مياه نهر التيبر ثم يلقى نفسه وراءه ..

ووسط هذه الدوامة القاسية وعلى مشارف المستقبل المجهول التقت انطباعات الشاعر بملامح الفن العريق الخالد فى ايطاليا لتتولد منهما شرارة تأخذ البصر ، والتقط اندرسن هذه الشرارة وأشعل بها ما تبقى لديه من عزيمة وأمل وايمان ، ولم يغادر ايطاليا الا وهو يحمل بداية عمل كبير انتهى منه بعد عودته الى الوطن .

كان هذا العمل هو روايته « الشاعر المطبوع » وهى ترجمة مقنعة لحياته ، فالشخصية الرئيسية — والتى قدمها المؤلف فى ثوب ايطالى — لم تكن سوى نسخة أخرى من المؤلف نفسه ، وكذلك فان الشخصيات الثانوية فيها ملامح نعرفها كثيرا .. فهناك الام المسكينة والجد المجنون والناظر ميسلنج والمدرسون فى كوبنهاجن .. ان أندرسن يقول عن هذه الرواية « كل الشخصيات منتزعة من الحياة كلها ، ولا توجد شخصية واحدة من وحى الخيال ، اننى عرفتهم وأعرفهم جميعا .. » .

وليس من شك فى أن هذه الرواية كانت نقطة تحول فى حياته ، فبدونها ما كان ليستطيع أن يخرج عن كونه ذلك الفلام الجاهل المتعثر ليصبح الكاتب العالمى هانز كريستيان اندرسن ، فقد صدرت الرواية ولقيت اجماعا تاما على جمالها ، وأعيد طبعها عدة مرات وترجمت الى السويدية ثم الالمانية والانجليزية . وتوالت بعد ذلك أعماله الناجحة وما ان حلت سنة ١٨٤٠ حتى تأكدت شهرته واسترعت انظار أوربا باكملها وأصبح محل تقدير جميع الاوساط الأدبية بها واهتمامها .

وبدأ اندرسن فى هذه الفترة يحس بنظرة الطمأنينة والاستقرار فى أول مرة فى حياته .. فلم يعد يطارده شبح القلق والجوع والتشريد .. انه يسجل هنا أحاسيسه فى صراحة وصدق جديرين بالاعجاب ! ففى خطاب له الى « هنريت هانك » حفيدة المطبعى (افرسن) كتب يقول : « لم يمر فى حياتى شتاء هادىء سعيد كهذا الشتاء .. فان روايتى (الشاعر المطبوع) قد رفعتنى فى أعين الخبراء والعظماء .. وحتى عامة الشعب أصبحوا يحترموننى ولم أعد أشعر بالقلق على طعام يومى .. حمدا لله فقد استطعت أخيرا أن أستمتع بالحياة تماما .. فالناشرون يرسلون لى الصحف والمطبوعات .وانى لأجلس مرتديا ثوبى المنزلى الزاهى (وشبشبى) الملون على الأريكة المريحة ، وبجانبى الموقد يئز ، وابريق الشاى يطن ،ورائحة البخور تشيع فى جو الغرفة الاحساس بالرضا . وعندئذ أفكر فى ذلك الصبى الصغير الذى كان ينتعل الحذاء الخشبى فى أودنز ، فتمتلىء نفسى بالرضا والشكر لله الرحيم » .

ولم يكن اندرسن معذلك قد ضمن الايرادالثابت الكافى لتشجيعه على الزواج مع الاحتفاظ بمستوى اجتماعى لائق . وكان كلما فكر فى الاقدام على الزواج قال لنفسه فى مرارة .. « كنت من قبل مشغول الفكر بالمجد ، أما الآن فقد أصبحت مشغولا بشجرة الخبز وجاءته شجرة الخبز على صورة معاش سنوى قررته له الحكومة ، وبدأ يحس بالاستقرار الكامل أدبيا وماديا لانه لم يعد يكتب اضطرارا لكسب القوت .. « وأصبح لى فى حديقتى شجرة خبز .. ولم أعد بحاجة الى التفريد من أجل الفتات » .

***

عودة الى المسرح :

الفنان هو الفنان دائما .. نوع من البشر لايكاد يلوح له الاستقرار حتى يعاود البحث عن القلق ، ولا يكاد يحيق به القلق حتى تسود الدنيا فى عينيه وينحى باللائمة على الايام .

فقد ظل أندرسن كما هو ، اندرسن الشاعر الذى لاينفذ الى أعماقه كل ماحوله من مظاهر أو بريق . لم تعد « شجرة الخبز » الصغيرة هى كل هدفه المنشود ، وأخذ يشعر بالقلق والاكتئاب مرة أخرى .

ولقد عاوده هذا القلق فى صورة الحنين الى المسرح الذى غادر من أجله مسقط رأسه وهو بعد طفل صغير . ولم يكن قد زايلة ذلك الحنين الى المسرح طوال تلك السنوات برغم الفشل الذى منى به فى التمثيل والغناء . وكان اندرسن قد كتب اوبرا أسماها « عروس لامرمور » ، وعرضت هذه الأوبرا على المسرح الملكى سنة ١٨٣٢ فصادفت بعض النجاح ، ثم كتب بعد ذلك عددا من الاعمال المسرحية الضعيفة التى لم تكسبه شيئا جديدا .



« هانز كريستيان اندرسن فى شبابه »

ولكن بعد ان اصبح مرموقا ككاتب قصة اتجه الى القيام بعمل مسرحى كبير ، فكتب مسرحية شعرية أسماها « انخلاسى » وقدمها الى المسرح الملكى عام ١٨٣٩ . وكان موضوع المسرحية يدور حول رجل ملون استطاع بعد كفاح عنيف ومغامرات قاسية أن يتزوج الكونتيسة البيضاء التى يحبها . وبرغم أن « مولبك » الرقيب بالمسرح قرر أن المسرحية تافهة وتنقصها الفكرة فان مكانة اندرسن الادبية فى ذلك الوقت استطاعت ان تدفع بالرواية على خشبة المسرح ، ولكن يشاء الحظ العاثر أن يموت الملك فى ليلةالافتتاح مما أدىالى تأجيل العرض، غير أن هذا النحس لم يدم طويلا ،فقد عرضت المسرحية بعدانتهاء فترة الحداد واذا بها تلقى استحسانا كبيرا ، مما دفع اندرسن الى كتابة مسرحية جديدة اسمها « عذراء المغرب » .

ولكن (مولبك) لم يكن قد غفر لاندرسن موقف التحدي السافر الذي اتخذه ضده فى مسرحية الخلاسى « فتضامن مع « هايبرج » وهو اكبر ناقد أدبي فى ذلك الوقت للوقوف حجر عثرة أمام المسرحية الجديدة. وزاد الامر تعقيدا أن مدام هايبرج ـ وكانت الممثلة الاولى على المسرح الملكي ـ رفضت القيام بدور البطلة فى مسرحية « عذارء المغرب » . فحنق اندرسن عليهم جميعا ، ودفع بالمسرحية الى المطبعة بعد أن كتب لها مقدمة لاذعة ألهب فيها ظهور النقاد وذكرهم بالتوفيق المنقطع النظير الذى لقيته أعماله فى السويد والمانيا ! « ما زال الناس يضعون نصب أعينهم المحاولات الاولى التى قمت بها فى الكتابة للمسرح الى الحد الذى يئسوا معه من أن أكتب شيئا جديرا بالثناء فى هذا المضمار ، ومع ذلك فلقد اعتقدت أنه فى مقدورى أن ابذل محاولة جديدة ، وليس ثمة من يجهل هنا المشاق التى واجهتها لكى تظهر هذه المحاولة على خشبة المسرح . وانى لأعتبر قبولها من قبيل الرحمة برغم أنها لقيت من الترحيب والاستحسان ما لم يدر لى بخلد ، بل لعلى أستطيع أن أقول انها أنعشت الموقف المالى للمسرح .

اما عن هذه المسرحية « فتاة المغرب » فانى لن أعرف المصير الذى ستلقاه هنا اذ انى سأكون قد غادرت الديار قبل أن تتخذ طريقها الى خشبة المسرح . اننى سوف أرحل فى هذا الوقت بالذات لكى أنسى بعض الأشياء المريرة ، ثم لكى أستعيد قواى من جديد حتى أستطيع القيام بعمل أفضل » .

وشد اندرسن الرحال نحو الشرق قبل ان يشهد المسرحية على خشبة المسرح الملكى فى ديسمبر سنة ١٨٤٠ ، ولقد قوبلت المسرحية ببرود ولم تعرض الا لمدة ثلاث ليال .

على أن هذا الدرس لم يكن كافيا لابعاد اندرسن عن الكتابة للمسرح ، فقد قدم فى عامى ١٨٤١ ، ١٨٤٢ بعض المسرحيات لعل أفضلها تلك الهزلية التى أسماها « غرفة النوم الجديدة » وكان قد قدمها باسم مستعار لأول مرة سنة ١٨٤٥ قائلا : « انهم سيقبلونها اذا عرفوا أننى لست كاتبها » وكأنما شاء القدر أن يثبت صحة رأيه فاذا هى تقبل فورا ، وتنجح نجاحا يجعلها تبقى فى برنامج المسرح لتمثل بين حين وآخر لفترة تقرب من مائة عام .

وفى سنة ١٨٤٦ عرضت له أوبرا « كريستيين الصغيرة » التى وضع موسيقاها هارتمان وأصبحت على كل لسان . وتحقق اندرسن فى نهاية الأمر أن كتابة التراجيديات لاتتلاءم معه فأخذ يكتب منذ سنة ١٨٥٠ عددا من الهزليات بصفة منتظمة لبعض المسارح الشعبية .

***

القصص الأسطورية :

هناك عاملان أساسيان لاتجاه أندرسن الى كتابة القصص الأسطورية للناشئة

العامل الاول نفسي ، وهو يتعلق بما ناله من عقوق ونكران من الجيل الذى عاش فيه . انه كان ينشد الشهرة والمجد ، وها هى ذى السنون تنهب من عمره ولا يكاد يظفر بما كان ينشده ، فالنقاد يضعون امامه العراقيل تلو العراقيل ويملئون طريقه بالشوك ويسلطون عليه اقلامهم الحادة التي تنهش روحه وقلبه . كان جيله فى نظره مفعماً بالنفاق ، فمن يصفق له اليوم استحسانا يقلب له فى غد ظهر المجن وينضم الى جيش الحاقدين . وهو أيضا جيل قاصر محدود التفكير لم يقدر على فهمه وتقديره حق قدره ، ومن ثم كان لا بد له من الاتجاه الى جيل آخر ــ جيل طيب لايعرف الحقد ، جيل يمد فى عمر شهرته سنوات طويلة لا تعوض ما ضاع من عمره فحسب بل تمتد بعد وفاته اجيالا اخرى .. وهذا هو ما يفسر تلك العبارة التى وردت فى خطاب له الى (هنرييت هانك) : « لقد شرعت فى كتابة بعض القصص الخيالية للأطفال ، اننى أريد أن أكسب الجيل القادم » .

اما العامل الآخر فهو عامل مادى ، اذ بعد ان فرغ اندرسن من روايته « الشاعر المطبوع » التى كان يعلق عليها أكبر الآمال ، بعث بها الى ادوارد كولين الذى حملها الى الناشرين وساومهم عليها نيابة عن صديقه ، فأبى جميعهم أن يدفعوا أكثر من ٢٠ جنيها ، وعلى أقساط ولم يسع هانز الا أن يقبل مرغما فقد كان عليه ايجار شهر للمسكن ، وبرغم أنه كان يتناول وجبة عشاء كل يوم عند أصدقائه بالتناوب فان ملابسه وحذاءه كانت فى حالة يرثى لها .

وبسبب فقره الشديد ، وحاجته الملحة الى المال ، اضطر الى تأليف كتيب يحتوى على بعض القصص الاسطورية للأطفال ، منها (القداحة)، (كلاوز الصغيرة والكبيرة) .

على أنه بالرغم من أهمية هذين العاملين فان التحول الخطير فى حياة أندرسن الأدبية لم يكن محض مصادفة ، بل كانت له جذور متأصلة فى كيانه منذ ان كان طفلا صغيرا .

فلقد كشف هانز منذ الصغر عن ميل الى كل ما يمت بالخوارق الطبيعية والأساطير بصلة ،كما أنه كان دائم الهروب من واقعه والتحليق فى الاجواء البعيدة حتى لقد كانت أمه تقول : ان ابنها اغرب الأطفال واعجبهم .

ومن ناحية اخرى كان اندرسن ذا احساس غير عادى وفهم عميق لنفسية الاطفال ، كما انه كان قادرا على التعبير عن نفسه بما يرضى أمزجتهم على مختلف أعمارهم . وها هو ذا « ادوارد كولين » يعطينا صورة حية عن سلوك اندرسن الفريزى نحو الأطفال « كان كلما وجد فى أحد المحافل التي نرتادها مجموعة من الاطفال اقتحم عالمهم وجذبهم اليه فى ثوان معدودة بما يقص عليهم من قصص كان اغلبها وحى الساعة

وبعضها مقتبس من الاساطير التى نعرفها . ولكن سواء كان يؤلف تلك الأقاصيص أو يرويها من بعض ماقرأ ، فان طريقة عرضه لها كانت طريقة خاصة به ، ومثيرة لدرجة تجعل كل طفل مشغولا عن نفسه وتشد أذنه وكيانه الى شفتى اندرسن .

ولقد كان اندرسن نفسه يحس بالمتعة عندما يجد الذهول البادى على وجوه الاطفال ، فينفلت لسانه من عقاله وينطلق فى الحديث دون توقف على حين تعمل يداه وملامح وجهه فى حركات مستمرة مما يكسب كلامه كل سحر وتأثير . لقد كان يبث الحياة فى العبارات المجردة ويضفى عليها من خياله المتوقد ما يحيلها الى مشهد نابض بالحركة : فهو مثلا لا يقول هذه العبارة : « صعد الاطفال الى المركبة وانطلقت بهم « بل انه « يترجمها » بطريقته الخاصة الى ما يلى : وتواثبوا جميعا الى المركبة .. وداعا بابا .. وداعا ماما .. وفرقع السوط فى الهواء .. وطارت المركبة فى طريقها » .

لقد كانت طريقته مفعمة بالحياة لانه استعمل عبارات سهلة تنساب فى غير ما تعقيد او حذلقة . ومن أجل هذا قيل ــ والقول حق ــ ان أندرسن ليس هو الذى آخذ من اللغة الأدبية فى عصره ، بل ان الشعب الدانمركى هو الذى تأثر « باللغة الأندرسنية » .

وكان من ملامح ذلك العصر الاهتمام الزائد بالأساطير الشعبية ، فلم يكن أى بيت فى الدانمرك يخلو من كتب الأساطير لاخوان (جريم) والكاتب الألمانى « هوفمان » . وكان لهذه الأساطير فعل السحر على هانز كريستيان أندرسن ، على أنه لم يكن يكتفى برواية الأساطير الشعبية ، بل كان يهضمها تم يخلق منها شيئا جديدا نابعا من عالمه الخاص . وفى هذا يقول (ادوارد ليهمان) المؤرخ المشهور : « ان كل الأساطير التى عالجها رومانتيكيو ألمانيا ليست سوى صور أدبية ، أما اندرسن فقد أخرج لنا الأساطير ــ سواء تلك التى رواها أو وضعها ــ من زاوية أصيلة وتجربة ذاتية حقيقية . انه آخر كتاب الأساطير فى العالم ، ولانه آخرهم فهو أولهم وأعظمهم . »

وبمجرد ان اكتشف اندرسن هذا الاتجاه الطبيعى فى نفسه ورأى ملاءمته لمواهبه شرع فى نشر الأساطير التى ألفها بنفسه . وكان يجد الالهام أينما حل « كان يخيل الى ان كل ورقة وكل زهرة تقع عليها عيناى تهيب بى قائلة : أنظر الى لحظة واحدة ولسوف تعرف قصتى وكنت كلما أفعل أجد لدى قصة جديدة » .

ولقد كانت طفولته نبعا لا ينضب ، وكذا تجاربه واسفاره ، وهو يتحدث عن الافكار التى كان يغوص وراءها فى أغوار عمره فيقول : (انها تكمن هناك كالبذور ، وكان يكفى انطلاقها براعم زاهية ، نفحة من هواء أو شعاع من شمس أو قطرة ندى) .

وتختلف أساطير هانز كريستيان أندرسن عن الأساطير الشعبية التى كانت معروفة قبله بما تحويه من وفرة فى وصف الطبيعة ، فقد كان اندرسن ذا احساس فريد بجمال الطبيعة ، وكانت الزهور هى

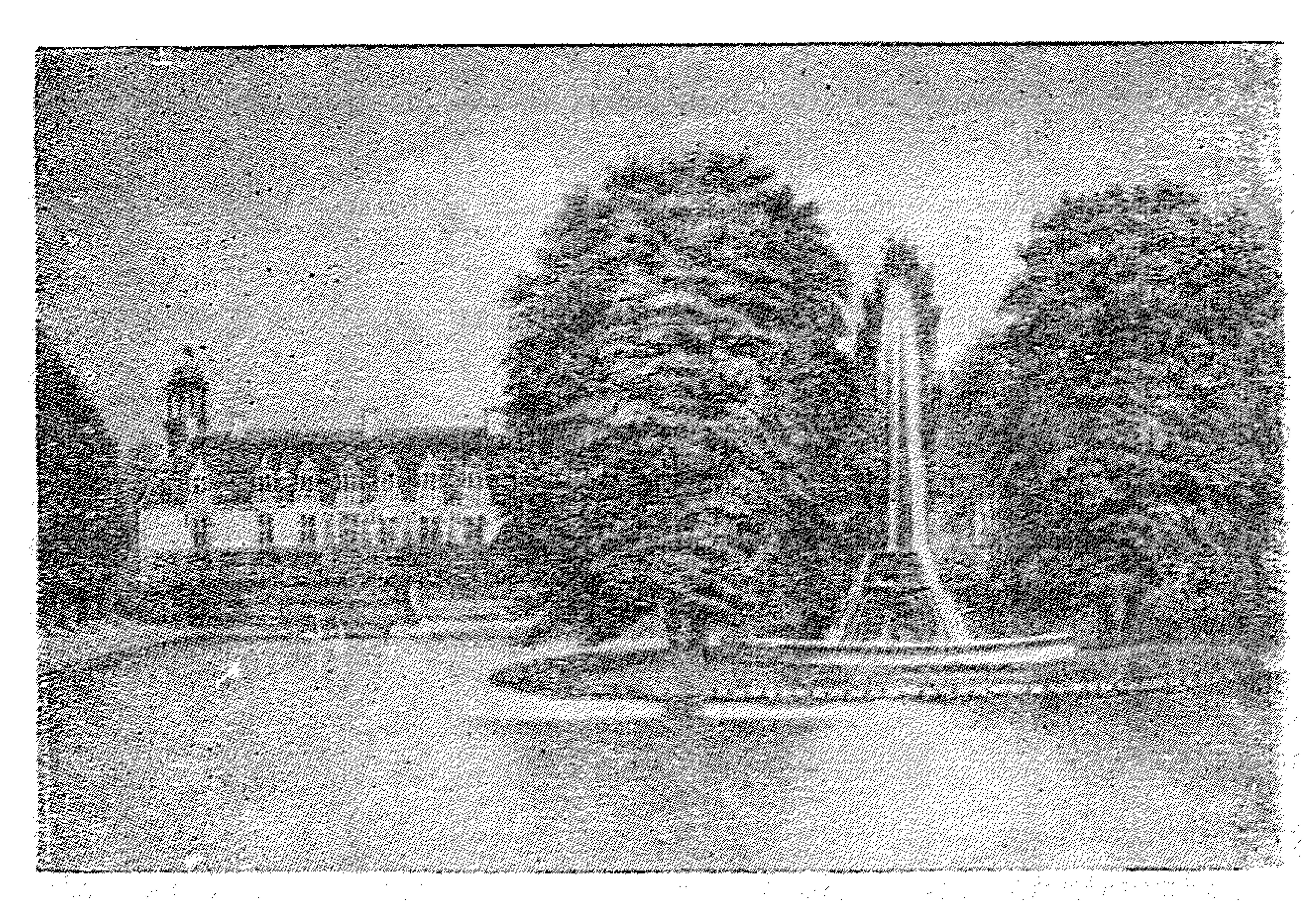
أقرب مظاهر الطبيعة الى قلبه . وما زالت فى متحف اندرسن مجموعة من الزهور كان قد جمعها فى أسفاره المختلفة واحتفظ بها الى آخر أيامه .

وثمة شيء آخر تميزت به قصصه الاسطورية وهو الحنو الى كل من اساءت اليه الحياة ،ولقد كان ذلك نغمة جديدة فى الأدب الدانمركى على ان قصصه لم تكن خالية من ومضات المرح والسخرية . لقد كانت كل قصة تحوى نقطة من دمائه ، ولعله من أجل هذا السبب بقيت قصصه حية خالدة على مر الأيام .

***

اقامته فى بيوت الأعيان :

عرف اندرسن طريقه اذن حوالىسنة ١٨٤٨ . أدرك أن ما يلائمه ليس المسرحيات او القصص الطويلة التى جعلته فى مؤخرة الصف ، بل ان الاساطير هى التى طيرت شهرته فى الداخل والخارج .وفى الوقت الذى أخذ مستقبله يستدير نحو الاتجاه المستقيم اكتشف اندرسن القالب المعيشى الذى يتناسب مع حياته الوحيدة القلقة ، فكان يقضى شهور الشتاء فى كوبنهاجن حيث المسارح والاصدقاء ، ولكنه عادة كان يغادر المدينة اما الى الخارج واما الهجوع الى بيوت كبار الأعيان بالريف الدانمركى ليقضى فى كل منها بضعة أيام .



أحد بيوت الأعيان فى جلوروب

ولقد كثر عدد أصدقائه من هؤلاء الاعيان عاما بعد عام ، ولعل أكثر البيوت ترددا فى كتاباته هى التى زارها فى (ليكيشولم) و (جلوروب) و (هولشلنبورج) حيث كان يقضى بضعة أيام وهو فى طريقه الى الخارج أو فى طريق عودته أو فى أعياد الميلاد .

وكان اكثر ما يجذبه الى تلك البيوت هو ميله الى البقاع الهادئة ذات المناظر الطبيعية الخلابة « فى هذا العالم الهادىء ، عالم البحيرات والغابات والمروج الخضر التى تمرح فيها الطيور بمختلف أنواعها ، لم أسمع لغو الحديث عن الساسة والسياسة ، او تفاهة الاحاديث عن الفلسفة والسفسطة . وانما أسمع فقط همسات الطبيعة الخالدة التى تنفذ الى أعماق قلبى » .

كان من الطبيعى اذن أن تؤتى الحياة فى تلك القصور أكلها ، وأن يخرج لنا اندرسن مجموعة من الاعمال الهامة فى تلك الفترات التى قضاها وسط الهدوء والبساطة والجمال . ونذكر من هذه الأعمال (العائلة السعيدة) و (العندليب) و (البستانى والسيد) وغيرها .

***

الى الخارج :

لا يعرف كاتب فى ذلك العصر قام بهذا العدد من الرحلات الطويلة مثل ما فعل اندرسن . ولم يكن السفر فى نظره نوعا من التسلية أو ضربا من المتعة ، بل كان يراه ضرورة وعنصرا هاما للبحث عن الانطباعات التى تذكى خياله وتحطم سياج الالم واليأس الذى كان يغلف قلبه فى أغلب الأحايين . وهو يقول فى هذا المعنى : « فى السفر حياة .. ان غذاء روحى الأمثل هو الطبيعة بكل ما فيها من روعة وشموخ ، والسفر جزء من عملى كشاعر » .

لم يكد اندرسن يمكث بضعة شهور فى كوبنهاجن حتى نزعت نفسه الى الرحيل مرة أخرى . فقام بتدبر مركزه المالى ووضع فى اعتباره كل الظروف التى تحيط به ازاء رحلته الجديدة بعد أن عانى كثيرا من الضيق المالى الذى اكتنفه فى أثناء وجوده فى المانيا .. « لقد بدأت أتعلم كيف أسافر بطريقة اقتصادية ، فالعقل ــ وليس الشعر ــ هو المطلوب عند السفر » .

ولقد مارس اندرسن فى رحلاته التى كانت بين عامى ١٨٣٠ و ١٨٧٠ جميع وسائل الانتقال المعروفة فى تلك الايام من الحمار الى البواخر والقطار . وكان يحس ــ لكثرة مالاقاه فى أسفاره من مشقة ــ بالبهجة كلما ظهرت وسيلة جديدة تختصر المسافات وتهىء للمسافر مركبا سهلا ، ويرحب بكل خطوة تقدم فى هذا المضمار .

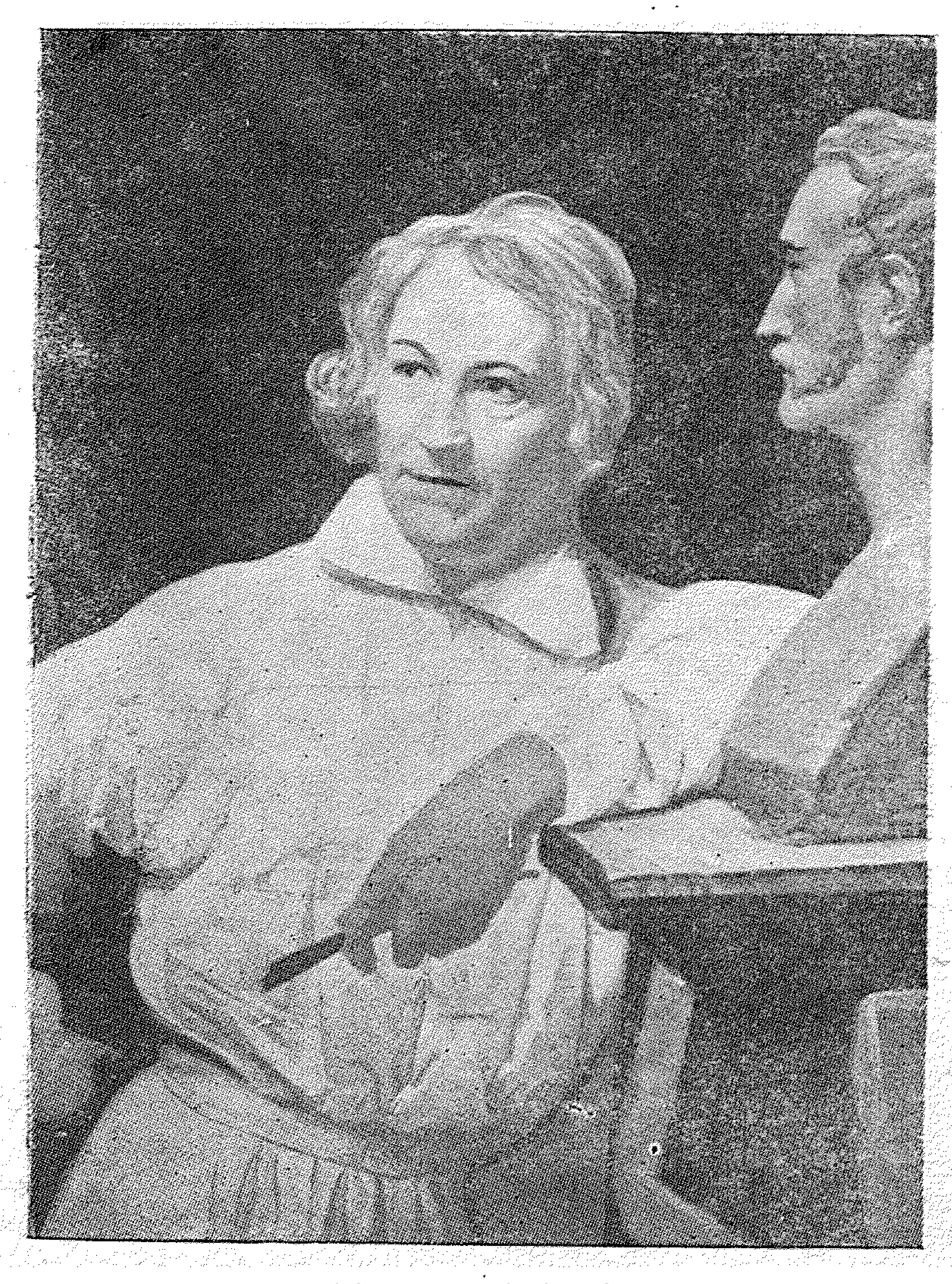
على أن كل همه كان الرحيل الدائم بصرف النظر عن صنوف التعب التى كان يلقاها . فقام فىعام ١٨٤٧ بجولةطويلة بدأها بانجلترا فسويسرا فروما فاسبانيا فالبرتغال فباريس ، كما زار السويد والنرويج .

ولقد كان أول هدف له من هذه السفريات البحث عن مادة للكتابة .. « عندما أكون فى الخارج لا أعرف الراحة منذ الصباح حتى المساء ، اننى لا أملك الا أن أنظر وأنظر والا أن افتح أفكارى على مصراعيها للبلاد والشعوب والجبال والبحار .. لقد كنت فى أول الامر احس بهيجان ينبثق فى داخلى ، وبعد فترة تهتز نفسى ثم تهدأ لتخرج منها البراعم حية نابضة » .

ان نظرة اندرســـن الحادة وخياله اللماح جعلا من كتاباته أدبا خالدا ، وأكسبا أعماله الوصفية مكانة رفيعـة بين انتاجه . لقــد كان لاندرســن عقلية الصحفى وخيال الفنان والأسـلوب الرقيق الذى يقطر عذوبة وسهولة .

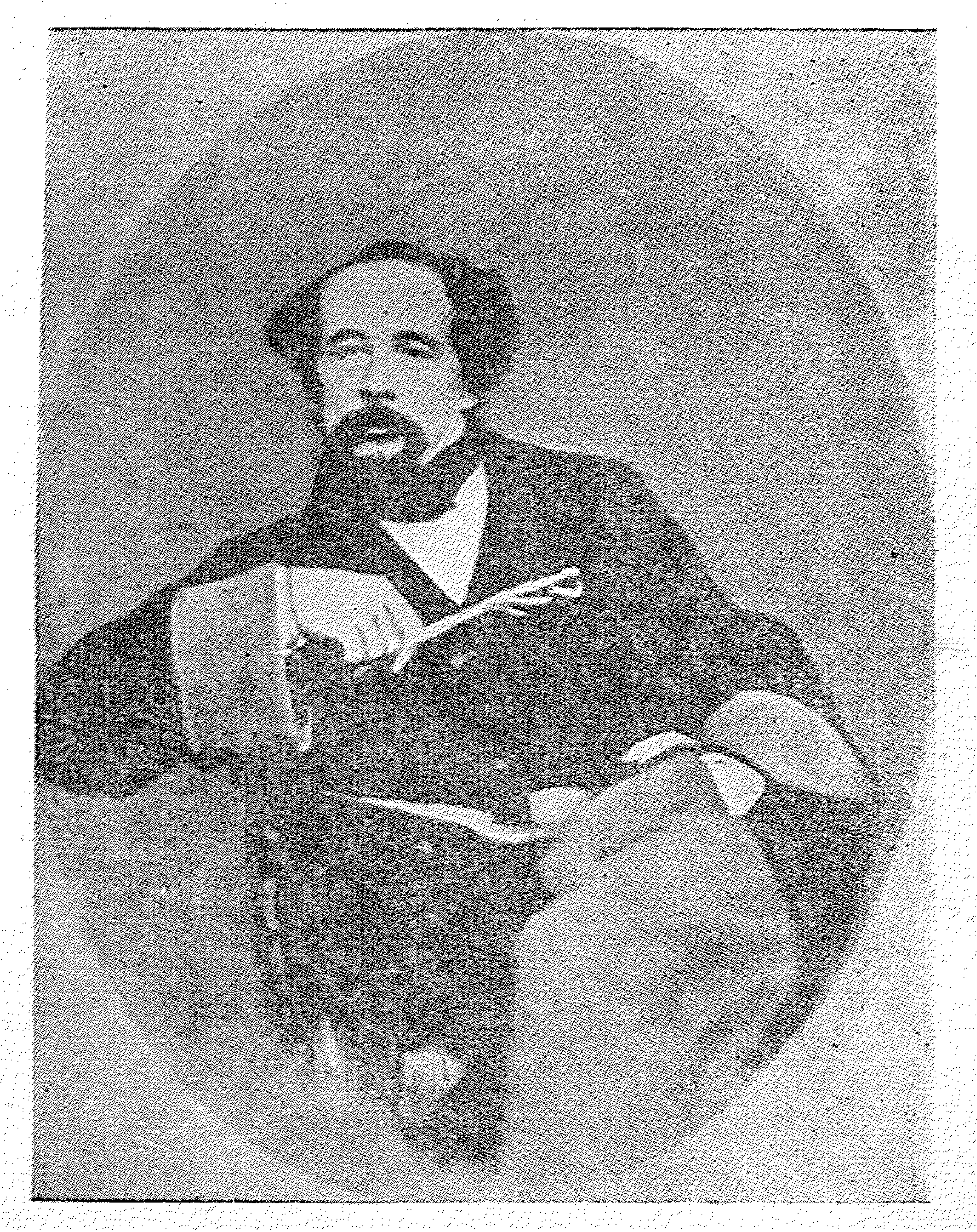
وكان الهدف (الثانى) لاندرســن من هذه الرحلات هو التزود بصداقات جديدة فى كل مكان ، فلقــد تميزت شخصيته منذ الطفولة بالرغبة فى التعرف على النـاس ، وازدادت هذه الرغبة على مر الأيام وخاصـــة عندما استرعت اعماله أنظـار عدد غير قليل من الناس فى الداخل والخارج .

ومما هو جدير بالذكر أنه كان يبدو أكثر ميلا الى الفنانين الذين خرجوا ــ مثله ــ من بيوت فقيرة ، فنجده قد انعطف فى روما ســـنة



المثال الدانمركى ثورفالدسن

١٨٣٣ الى المثال الدانمركى « ثورفالدسن »، وطاب خاطره عندما علم ان ذلك الفنان الكبير يشق طريقه الملىء بالأشـــواك فى عزيمة لا يتطرق اليها اليأس . وأحس اندرسن أيضا أن هناك تشـــابها كبيرا بين حياته وحيـــاة الموسيقار النرويجى « أول بل » . ولعل هذه النزعة بالذات هى التى جعلته يسعى الى التعرف بالكاتب الانجليزى الكبير (تشـــارلز ديكنز) فى أثناء زيارته لانجلترا عام ١٨٤٧ ، ١٨٥٧ فلقد وجد اندرسن فى حياة ديكنز ملامح غير بعيدة عن ملامح حياته .



تشارلز ديكنز ..
أحس أندرسن أن شقاء طفولتهما يربط روحيهما برباط وثيق

على أن حيـــاة اندرسن لم تتـــأثر بفنان ما من فنانى عصره مثلما تأثرت بالمغنية السويدية « جينى لند » .

لقد جاءت الفنانة الشابة الى كوبنهاجن سنة ١٨٤٠ وكانت تتمتع بشهرة كبيرة، وفى اثناء زيارتها الثانية لكوبنهاجن ١٨٤٣ نمت بينهما وبين اندرسن معرفة وثيقة أدت به الى أن وقع فى حبها .. « اننى أعلم أنها ليست سعيدة وانها مرت بأيام عصيبة » .

وفى عام ١٨٤٥ قابلها اندرسن فى برلين حيث حل عليهما عيد راس السنة الميلادية وعرف فى أثناء احتفالهما بالعيد أن حبهما ليس متبادلا وانها تنظر له كأخ لا كحبيب . ولقد ألهمته هذه التجربة العميقة عددا من القصص الخالدة ، مثل (الكروان) و (الملاك) و « تحت شجرة الصفصاف » . ولعل أروع هذه الاعمال جميعا هي قصة (الكروان) التى تتحدث عن كروان كانت له مكانة أثيرة عند أحد الملوك ، فجاء الطائر يوما الى الملك يطلب منه أن يمنحه حريته بعيدا عن قصره حيث يستطيع الغناء للجميع على السواء • (أنظر الفصل الثالث)

ولقد شاهد اندرسن « جينى لند » بعد ذلك عدة مرات ، ولكنها بعد أن تزوجت عرف أن حياته قد دمغت بالوحدة والحرمان الى الأبد . ولقد سجل اندرسن هذه التجربة فى كتابه (أسطورة حياتى) فقال :



جينى لند

« مامن فنان أفهمني قدسية الفن مثل (جيني لند) ، فلقد تعلمت منها كيف انه لا بد لناأن ننسى انفسنا فيسبيل ما هو أهم واخطر . وما من كتاب أو شخص كان له ذلك الأثر النبيل العظيم على نفسى كشاعر مثل ذلك الاثر الذى كان لجينى لند » .

واتسعت دائرة معارفه بازدياد شهرته ككاتب ، فأصبحت له صداقات وثيقة بعدد كبير جدا من أساطين الادب فيجميع انحاء أوروبا مثل (ليست ، و (واجنر) و (هاين) و (فيكتور هوجو) و (بلزاك) و (دوماس الأب) و « لامرتين » و « الفرد دى فينى » وغيرهم ممن تربعوا على عرش الفن والأدب فى منتصف القرن التاسع عشر .

وقد أدت المانيا دورا خاصا فى حياته ، فقد كانت العلاقات على ما يرام بين الدانمرك والمانيا فى النصف الاول من القرن التاسع عشر وكان الادب الالمانى وبخاصة أعمال (جوته) و (شيلر) من القراءات المفضلة لدى صفوة المثقفين فى الدانمرك . ولم ينس اندرسن الاستقبال الطيب الذى ليقيته اعماله الاولى فى المانيا ، فكان يحس نحوها بالعرفان وخاصة عندما يقارن ذلك التشجيع بما جابهه من نكران ومهانة فى بلده . من هنا كانت لالمانيا مكانة أثيرة فى قلبه ، وكانت الايام التى يقضيها فى (ويمار) من أسعد أيام حياته . وقد تعرف هناك بألمع الشخصيات وأكابر القوم ونال من الجميع كل تكريم . فلما قامت الحرب بين الدانمرك وبروسيا صارت نفس اندرسن نهبا لآلام عنيفة ، فلم يكن فى مقدوره أن يكره المانيا ، كما أنه كان يشعر بقلبه يتمزق لاجل وطنه . وقد كانحياده هذا مثارصعاب كثيرة بالنسبة لاندرسن ، ولكنه قطع كل الشكوك التى بدات تلتف حوله بأن كتب اغنيته الوطنية التى أصبحت ترددها الاجيال كلها بعده ، والتى استهلها بقوله : « فى الدانمرك ، أرض البساطة كان مولدى » وهى منشورة فى الفصل الرابع من هذا الكتاب . ولقد كتب الى ادوارد كولين يرد على ما أثير حوله فى هذا الصدد : « اننى اكثر الشعراء دانمركية ، فلقد ولدت فوق هذه التربة وعليها اموت — ولسوف يعترف الجميع ، داخل هذه البلاد وخارجها ، اننى كنت أخلص الشعراء لوطنى » .

***

تقدير :

« أواه يا ادوارد ! ان روحى لتتوق الى أن يعترف بى اعترافا حقيقيا كما يتوق العطشان الى جرعة ماء ! » .

هكذا كتب اندرسن فى سنة ١٨٣٣ الى ادوارد كولين . وفى سنة ١٨٣٦ كتب يقول : « آمل أن يرتفع من أجلى صوت واحد فى المانيا ولسوف تجد الجميع هنا يعترفون بمواهبى ويضعوننى فى المكان الصحيح » . وأخذ يدق على هذا الوتر بعد ذلك فى كل خطاباته . ولقد استقر بباله انه لابد ان سيصبح مشهورا ، وأن الناس خارج وطنه قد ادركوا بوارق المجد الكامنة فى أعماله وتغاضوا عما يمكن أن يكون بهذه

الأعمال من هنات أو مواطن ضعف ، وابرزوا ما فيها من جمال . أما الناس فى الدانمرك فقد جعلوا كل همهم ابراز ضعفه وتثبيط همته .

والواقع انه لقى تكريما مبكرا من الناس خارج وطنه . واذا كان لنا ان نشير الى فترة معينة وقف فيها اندرسن — فى حياته — فوق هامة الشهرة والمجد فلابد أن تكون هذه الفترة هى السنوات ما بين ١٨٤٥ ، ١٨٥٠ .

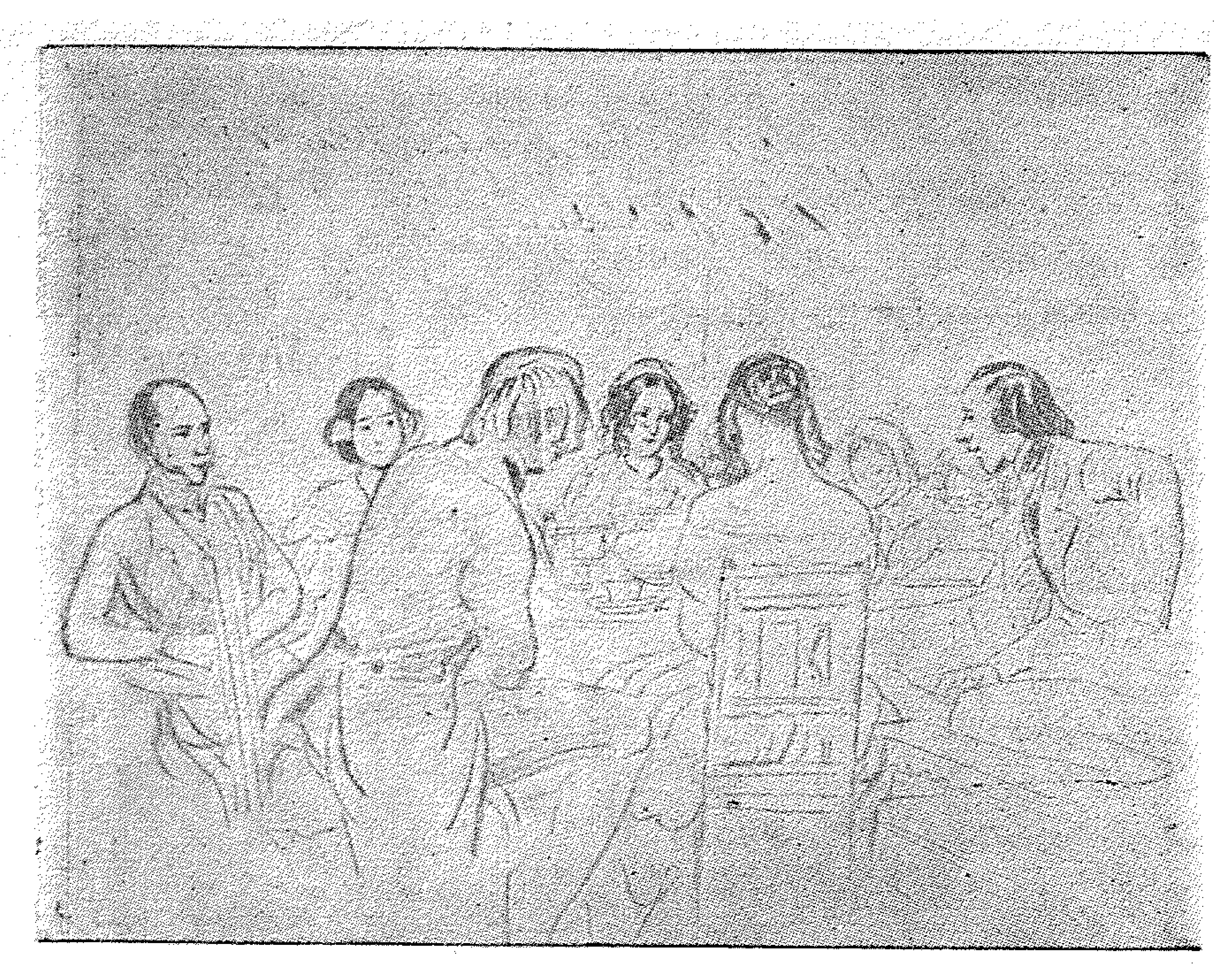
فقد كان ينعم فى تلك السنوات بالاستقرار الذهنى بعد أن اكتشف الشكل الأدبى الأكثر ملاءمة له ، وكان يتمتع بحيوية وقدرة فائقة على الكتابة ، فضلا عن علاقات المودة والحب التى كانت تربطه بأساطين الفن والأدب فى كل مكان بأوربا .

ولم تكن رحلاته فى (الأربعينات والخمسينات) سوى مواكب متصلة من الحفاوة والتكريم . ولا اظن ان كاتبا عالميا نال من التشريف ابان حياته مثلما نال اندرسن ، فقد حدث فى أثناء زيارته للبرتغال أن رفعت السفن الدانمركية الراسية فى ميناء برشلونة أعلامها تكريما له . وفى لندن قضى ثلاثة أسابيع كانت كلها أعيادا : « لقد كنت أدعى كل عصر وكل مساء ، وبعد ذلك أذهب الى الحفلات التى تقام الى ساعة متأخرة من الليل ان جميع الأماكن التى ارتدتها كانت تغص بالناس ، حتى انك لا تجد مكانا لقدم فى القاعات أو على السلالم .. لقد كانت الدعوات التى وجهت الى فوق احتمالى » . وقد دعاه فى لندن اللورد (بالمرستون) ، والتقى هناك أيضا بدوق « كيمبردج » وباقة كبيرة من زهور المجتمع اللندنى .

وفى ويمار سنة ١٨٤٤ دعته الدوقة (أوجستنبرج) لزيارتهم ، فلبى الدعوة وقضى أسبوعين كاملين ضيفا على العائلة الدوقية ، « وهناك وسط هذا البهاء الدوقى خطرت لى فكرة قصة أسطورية تصف ما يعانيه أناس آخرون من فاقة وعوز . ولقد أسميتها (بائعة الكبريت الصغيرة) . »

وفى درسدن نزل ضيفا على الملك « فريدريك أوجست الثانى » والملكة « ميرى » . وفى سنة ١٨٤٦ زار الدوقة « صوفى » دوقة النمسا . وفى برلين سنة ١٨٤٥ دعى الى حفل عشاء فى بوتسدام وهناك قدم له الملك وسام النسر الاحمر من الدرجة الثالثة .

وفى أثناء زيارته الطويلة للسويد سنة ١٨٤٩ استضافه الملك « أوسكار الأول » ، كما زار الملك « ماكس » ملك بافاريا فى سنة ١٨٥٢ وسنة ١٨٥٤ . وكان يطلب منه حيثما حل أن يقرأ بصوت عال بعض قصصه الأسطورية ، وكان يقوم بذلك فى رضا .



اندرسن يقرأ أقاصيصه الاسطورية في بيت الدوقة (أوجستنبرج)
(الرسم بريشة هارتمان سنة ١٨٤٥)

ولم يفت الشاعر أن يقص على الشخصيات الملكية طرفا من حياته المفعمة بالكفاح والأمل ، وقد علق الملك « ماكس » يوما على ما لاقاه أندرسن في حياته قائلا له : « لابد أنك تحس بالسعادة الفائقة عندما ترى نفسك قد تغلبت على كل شيء وحظيت بالمجد في النهاية . »

كما لم يفته أن يؤكد في خطاباته لآل كولنز الى أى مدى كان يعنيه الاعتراف بفنه ، فكتب وهو في ضيافة الملك « ماكس » : « وهكذا عبر لى الملك عن ابتهاجه بما وصلت اليه وحققته بعد أن قطعت ذلك الطريق الشائك الطويل ، وأخبرنى بأنه سعد كثيرا عندما سمع أن أدبى معترف به في ألمانيا أيضا » .

وكتب في عام ١٨٤٦ يقول : « سمعت أنهم يبتهجون لأعمالى في انجلترا .. وان طبعة فاخرة على وشك الصدور في ألمانيا .. اننى لست ميئوسا منه اذن كما يظن معظم الناس في بلادى . » وفي العام نفسه كتب يقول : « بالرغم من أن الترجمات التى تتداولها أوروبا لأعمالى ليست جيدة — فاننى لا أملك الا الشعور بالرضا . »

وكتب في لندن عام ١٨٤٧ معبرا عن قلقه على مستقبله : « لقد حصلت على كل ما يمكن أن يتصوره انسان من التقدير والتكريم — لابد أننى أعيش الآن على القمة ، وأننى متجه منذ اللحظة الى القاع —

فهل يمكن أن يكون هناك أكثر مما أسبغته على هذه المدينة العظيمة ؟» .
ولكن الى جوار هذه الرغبة فى التقدم والسمو ، والى جانب الانتصارات التى احرزها ، والأمجاد التى لم ينلها كاتب آخر ابان حياته ، كانت نفس اندرسن تنطوى على قدر غير قليل من الخنوع : « ما من شك فى اننى نجحت فى أن أصبح أشهر دانمركى فى العالم ، ولكنى أحيانا ما أقع تحت وطأة حال من الخضوع تنهمر فيها الدموع من عينى كالسيل ، فكلما صعد بى الحظ خطوات الى أعلى يزداد احساسى بالتفاهة وعدم جدارتى بكل ما أسبغه الله على من نعم » .

وأحيانا ما تشتد كآبته وتبدو له كل هذه الدنيا ضربا من العبث « اننى لا أحس بالسعادة على الاطلاق . أعتقد أنه من النكران أن أقول ذلك ، ولكننى بدأت ادرك الضحالة المتناهية التى تنطوى عليها أية شهرة أو مجد فى هذا العالم . »

ولعل العقدة الوحيدة التى جعلته يسيء الظن ببلده. ويبالغ فى المقارنة بين الحفاوة به فى الخارج والنقد الذى لقيه فى الداخل — لعل هذه العقدة هى المسرح — ولقد كشف ادوارد كولين عن هذه العقدة عندما قال سنة ١٨٤٦ : « انه ما من شيء يقف بين أندرسون وبين الدانمرك سوى المسرح الملكى » ... « وهكذا تعود أدراجك دائما الى طرق أبواب ذلك المسرح الملعون . ان هذا يؤلمنى منك أشد الألم . هل اعترفت بك المانيا ككاتب مسرحى ، أو انها تنظر اليك ككاتب قصص اسطورية ؟ ألم يحب الناس فى الدانمرك تلك القصص ؟ اننى أعتقد انهم يحبونها باخلاص وعمق أكثر مما يفعل الألمان . »

ختام القصة

كان اندرسن يعرف تماما أن مسرحياته لم تكن فعلا هى سبب ما يلقاه من تقدير وتكريم ، ومن ثم بدأ يقتنع برأى « ادوارد » والألم يعتصر قلبه ، وأيقن أنه لا مناص من أن يركز حياته الأدبية فى تأليف الأقاصيص وعلى مر السنين بدأ مواطنوه تدريجيا يقدرونه كما ينبغى ويعترفون بنبوغه كمؤلف أروع أقاصيص للأطفال • ونشرت بعض قصائده فى كل مجموعة من أشعار كبار الشعراء الدانمركيين •

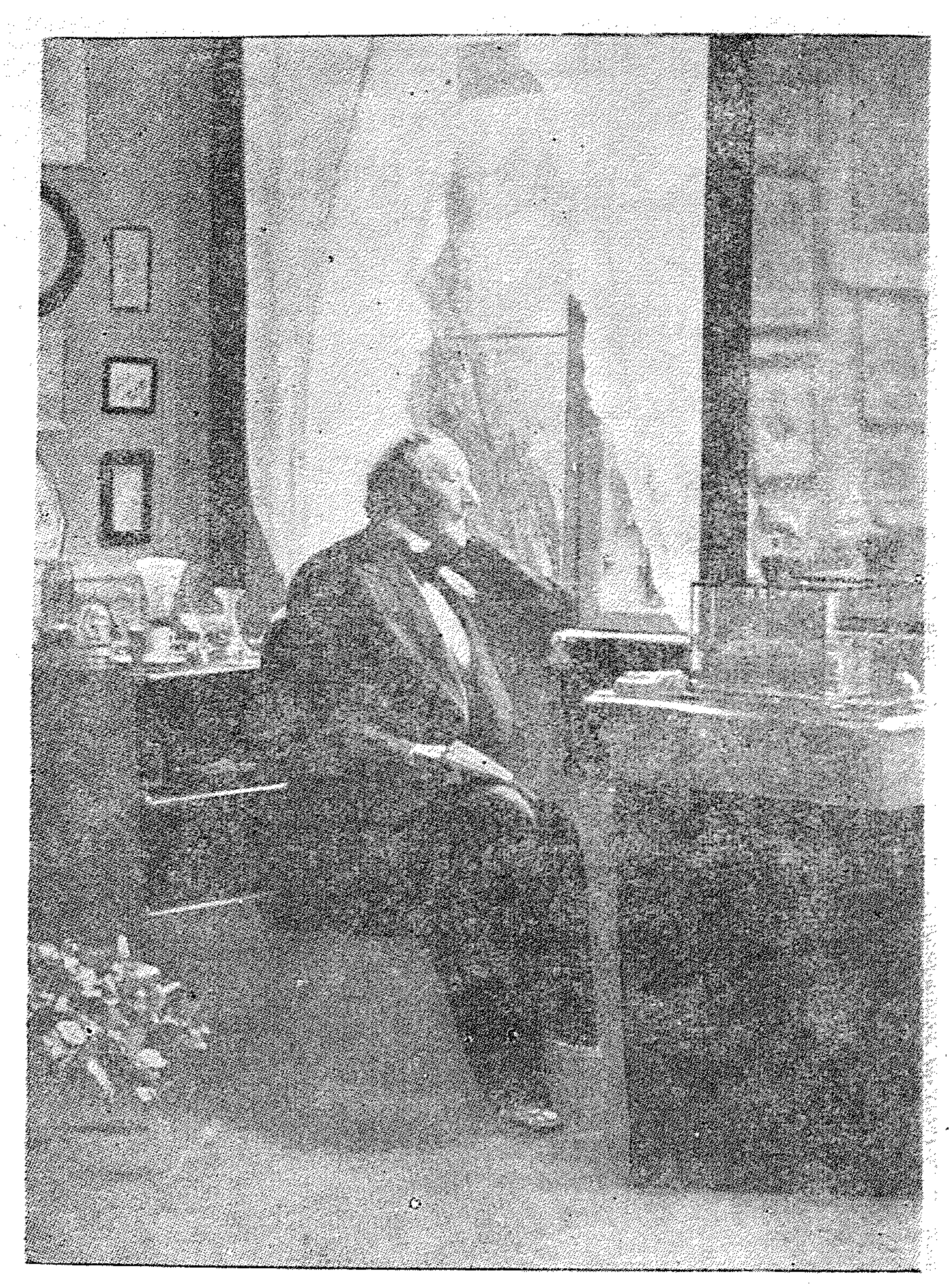
ثم جدت ظروف عطفته نهائيا الى بلاذه وأرغمته على تركيز جهوده فيها .. فان هزيمة عام ١٨٦٤ التى أرغمت فيها الدانمرك على النزول عن مقاطعتى « شلسويج » و « هولشتاين » لالمانيا ، كانت سببا لمرارة كل دانمركى • وتم الوفاق بين أندرسن وبلده بعـــد هذه التجربة ، وعوضه بلده كل ما لاقاه من مرارة وحرمان فخلع عليه كل شرف وفخار وزاد الملك كريستيان معاشه ومنح بعد ذلك لقب « البروفسور » ثم « المستشار » .

وشعر اندرسن أن حياته أصبحت تشبه القصص الاسطورية الى حد كبير • فأى بون شاسع بين طفولته فى أودنز وهذه المكانة الرفيعة التى آلت اليها رحلة حياته فى كوبنهاجن ، تلك الرحلة التى قضاها ضاربا فى بقاع الأرض ؟

وفى شهر ديسمبر عام ١٨٦٧ دعى أندرسن الى مدينـــة « أودنز » ليشهد الاحتـفال بتكريمه وليقضى فترة فى ضـــيافة الاســـقف « انجلشوفت » الذى كان صاحب فكرة الاحتفال . وفى اثناء الاحتفال تذكر اندرسن قصة علاء الدين الذى بنى قلعته الضخمة بمصاحبة السحرى فتوجه ــ مثلما فعل علاء الدين ــ الى النافذة وقال : « لقد كنت أذرع هذا الطريق وأنا طفل صغير ولقد منحت أنا أيضا مصباحا سحريا من روح الله ، انه مصباح الشعر . وعندما شمل هذا المصباح بضوئهعدة بلدان ، وهلل الناسله وقالوا هذا النور آت الينا من الدانمرك ــ فى هذه اللحظة ــ دق قلبى بالبهجة » .

وكان اندرسن قد بلغ به الارهاق أشده ، ويبدو ان حيـــاته القاسية وفاقته ، وسوء تغذيته فى صباه ، وتوتر أعصابه طوال عمره قد هدمت جسمه ، وأصبح دائم الشكوى من الامراض •

ومنذ حوالى سنة ١٨٧٢ بدات قوته تنهار وازداد توتر اعصابه وعجلت بوفاته اصابته بسرطان فى الكبد ، فلفظ انفاسه الاخيرة فى السادس من اغسطس سنة ١٨٧٥ .



« ختام القصة »

اندرسن فى عام ١٨٧٤

الفصــل الثانى

القصة الأسطورية قبل أندرسن وبعده

*** مقـــــدمة :**

١ ــ نشأة الاساطير .

٢ ــ الأسطورة والفولكلور .

٣ ــ الخرافة فى الاساطير .

*** أولا : القصة الاسطورية قبل اندرسن :.**

١ ــ تمهـــيد .

٢ ــ مرحلتان .

٣ ــ القصص الشعبى والادب .

*** ثانيا : قصص اندرسن الاسطورية :**

١ ــ الفكرة .

٢ ــ المضمون .

٣ ــ القالب .

القصة الأسطورية قبل أندرسن وبعده

مقدمة

١ ـ نشأة الاساطير

فى اذهان بعض الناس أن الاساطير ليست سوى « حواديت » تروى حول « المدفأة » فى ليالى الشتاء الباردة ، ولا هدف من ورائها الا التسلية والمتعة وقطع الوقت .

ويخطىء هؤلاء اذ يأخذون الاساطير على انها خرافة وحسب ، ليس فيها من الواقع أو الاهداف شيء سوى ما تضم من خيالات غريبة شاردة لا تصلح لغير الاطفال .

فما كانت الاساطير شيئا من ذلك قط والا فما استطاعت أن تكون هى العمد الخالدة التى قامت عليها اركان الادب العالمى ، وما أصبحت هى الجذور التى تفرعت منـــها هذه الالوان المتبـــاينة من الآداب والفنون .

فقد رافقت الاسطورة الانسان منذ نشأته وما تزال ترافقه ، وفى كل أسطورة تتمثل عقائد أصحابها ومثلهم وعاداتهم ، وتتضح نظرتهم وفلسفتهم فى الحياة . وهى تعطى فكرة كاملة عن الروح المتأصل فى هذه البلاد التى اتحدت فى صراعها العنيف من أجل الحرية والخير والسلام .

وما من امة ارتفع شأنها او هان الا ولها أساطيرها ، وهى فى كل الوانها ـ ســـواء كانت الهية أو بطولية أو غرامية أو خلقية أو فكاهية ـ انما تمثل جزءا ضخما من التراث القومى الذى يتلقاه الناس جيلا بعد جيل ، ويمتزج بنفوسهم حتى يصبح جانبـــا حيويا فى تكوينهم وحيواتهم .

ولا شك ان كل هذه الاساطير قائمة على أساس من الحقيقة . غير أن الخيال الانسانى مع مر الايام البس الحقيقة من الاوهام أردية جعلتها بعيدة عن المعقول ، وان تكن قريبة محببة الى النفوس .

ومع ذلك فأغلب الأساطير يدور حول انشـــاء حياة أفضل ، وهى محاولات نشأت مع نشوء الانسان ، يفسر بها أهم المشكلات التى واجهته فى بدء حياته على الارض ، وعلى رأسها مشكلة خلق الكون ، ويجتاز

بها الهوة بين العالم الذى يعيش فيه ، والكون الغامض الذى يحيط به ، ويحاول بها معرفة سر القوى المسيطرة على العالم كله ، ولماذا يقع الشر ؟ وكيف ينتصر الخير ؟

وبالرغم من أن الانسان يظن نفسه قد تحرر اليوم من هـذه المحاولات ، فانه فى خضم غروره ، ينسى أن محاولاته الحالية للوصول الى الكواكب ، ومغالبة الفضاء ، ليست سوى محاولات اخرى متطورة لمعرفة أسرار الكون . وهى — وان كانت اليوم تبلغ ذروة عالية من ذرى الحضارة — لا تختلف فى شىء عما كان يملأ ذهن الانسان القـديم ، بالقياس الى المراحل الحضارية التى كان يعيش فيـها ويترعرع بين أحضانها .

وتتضح حقيقة الاساطير عندما يتلمس المرء قصتها منذ بدأت ، وقصة منشىء الاساطير نفسه منذ خلق ..

فقد عاش الانسان أول أمره حياة بدائية محوطة بمئات الاخطار والاسرار ، وحملته مدهشات الكون وأعاجيبه التى لم يستطع ادراكها ادراكا علميا على أن يتوهم لها تفسيرا ، ويتخيل أصولا ووقائع يرتاح اليها وتزيل حيرة نفسه ..

وكان أول ما ملأ رأسه من تلك الخوارق التى تحيط به ، ايمانه بوجود قوى مسيطرة خالقة عاقلة ذات قدرة أسمى من قدرة كل العناصر والكائنات . وبدأ الانسان يتأمل تلك القوى ، ويجسم كل شىء خارق منها يحسه ولا يستطيع الوصول اليه فيجعله الها ، يعمل على استرضائه بتقديم الضحايا والقرابين .. فالنار والرياح والشمس والقمر والنجوم والمياه والبرق والرعد كلها آلهة طفق الانسان ينسج حولها القصص ويتناقلها خلفا عن سلف ، جيلا بعد جيل .

ولكن الانسان أخذ يعجب بعد ذلك لكل تلك القوى .. كيف جاءت هى الاخرى ؟ لا بد أن هناك شيئا خالقا ، شيئا اقوى من كل شىء ، استطاع أن يصنع وحده كل تلك الاشياء ..

ومن هنا كانت أقدم الاساطير التى وضعها الانسان هى أساطير الخلق ، نسجها حافلة بما تصوره لهذا الخالق ، وكيف أقام السـماء والارض ، وكيف جاءت الكائنات على اختلاف صورها واشكالها لتعمر الكون ..

تصور الانسان — أول ما تصور — الخالق الاول ، مصدرا رئيسيا للقوة والخلق ، يهيمن على كل شىء ، ويسـيطر على اركان الكون الواسع الشاسع الاطراف . تصور هذا الخـالق ومن حوله الآلهة الآخرون ، ينظمون الحياة على الأرض ويبصرون أعمـال النـاس ، فيثيبون المحسن ، وينكلون بالمسىء .

عندما تصور الانسان مجتمع الآلهة وتخيله ، بدأ يربط بينه وبين مجتمعه ، حيث كان لا بد من اتصال الآلهة والبشر ، واشتباك أعمال هؤلاء بأعمال أولئك فنشأت صور جديدة ترسم ذلك الاتصال ، ثم الاشتباك ، ثم الصراع الذى كان لا بد أن يكون ..

ذلك الصراع الذى يتمثل فى طوفان شديد ينتهى بالقضاء على البشر المفسدين الا واحدا تصطفيه الآلهة فينجو فى فلك يصنعه ، وعلى يديه تعود الحياة من جديد .

وبدت صورة الطوفان واضحة فى مختلف الاساطير ، وتماثلت صورة الانسان الذى اصطفته السماء ، فهو « شمس نيشتين » عند البابليين ، و « تجتوج » عند السومريين ، و « كزيزوتروس » عند الأشوريين ، و « دوكاليون » عند الاغريق .

ثم عاد الانسان يطل الى الاشياء الغامضة التى تحيط به .. فتوهم أن لكل شىء حوله الصفات التى له نفسها وافترض أن للجماد روحا وللنبات روحا وللآلهة روحا وأنها تتصرف تماما كالانسان : تحب وتكره ، وترضى وتغضب ، وتفعل كل ما يفعله هو نفسه ..

وكان الانسان مستمرا فى صراعه مع الطبيعة ، ولكن وسائل الحرب العادية البسيطة لم تعد تكفيه فى هذا الصراع المرير ، فبدأ يتصور بخياله كائنات تستطيع بقواها الخارقة منازلة أعدائه ، وصور أبطالا خارقين تتمثل فيهم مظاهر القوة عند الحيوان ومظاهر الجبروت عند الآلهة . ومن هنا ظهر « جلجميش » عند البابليين ، و « رستم » عند الفرس و « هرقل » عند الاغريق .

ولم يكتف الانسان بذلك ، فبدأ يتخيل من جديد كائنات أخرى تستطيع القيام بما يعجز عن الوصول اليه . وهنا ظهر الجن فى أساطير الانسان . وأدخلهم دائما فى صراعه بين الخير والشر ، وبين البشر والآلهة ، برغم انه لا يراهم رأى العين .

غير أن اشياء اخرى فى تفكير الانسان دفعته الى البحث عن وسائل جديدة لبلوغ اهدافه — وسائل يستطيع أن يلمسها ويتبينها بنفسه فى الوقت الذى لا يستطيع فيه ان يلمس أشخاص الجن .

وهنا اتجه الانسان الى السحر . واصبح السحر فى عقيدة القدماء بمثابة الروح من شعائر تلك العبادات . وشاع انه بالرقية أو التعويذة أو القسم يستطيع أن يجبر القوى الخفية على أن تطيع الانسان . حتى اننا نقرأ فى الف ليلة وليلة كيف أن من ينطق بكلمة « افتح يا سمسم » يلزم هذه القوى أن تشق الصخرة وتفتحها .

ومهما قيل من تشابه الأساطير أساسا في كل أنحاء الأرض ، فان هناك اختلافا واضحا فى تفاصيلها ، فكل امة شكلت أساطيرها على حسب ظروفها الطبيعية ذاتها .. فالمجتمعات التى استقرت فى ارض زراعية تشكل اساطيرها فى اهم ما يشغلها وهو الماء والنماء وخصب الارض ، والمجتمعات التى عاشت على الصيد تشكل اساطيرها فيما يشغلها من الحيوان وادوات الصيد وشياطين الغاب ، والمجتمعات التى يحيط بها البحر تشكل اساطيرها على العواصف والامواج والحور والجنيات .. وهكذا .

٢ ـ الأسطورة « والفولكلور » :

الاسطورة عادة هي قصة الاعمال التي يقوم بها أحد الآلهة ـ في العقائد القديمة ـ او احدى الخوارق الطبيعية من الابطال .. تبدو فيها محاولات الانسان لتفسير علاقاته بالكون والعالم ، أو تفسير وجود بعض العادات والنظم الاجتماعية أو الخصائص المميزة للبيئة التي يعيش فيها خالق الأساطير نفسه . وفي هذه الحال تنطوي على فهم ديني معين بالنسبة للشعب الذي رواها .

والفولكلور ـ أو القصص الشعبي ـ يروي تراث البشرية في أطوارها الاولى من عادات وعقائد وقصص ، وفن .. حكايات بدائية لها أصلها الاسطوري دون شك ، ولها ايضا قيمتها الفنية والجمالية الخالصة .

او بمعنى آخر : الاسطورة دراسة للصور البدائية الاولى للدين ، اما غيرها من الحكايات الشعبية القديمة فدراسة للعقائد والعادات البدائية التي ما زالت تمارس حتى اليوم . وفضل هذه الالوان مجتمعة هو أنها تقدم لنا صورا من التفكير القديم فيما يتصل بالدين أو بالعقيدة أو بالتقاليد أو بالبطولة والخيال .

٣ ـ الخرافة في الأساطير

ان التفسير العلمي للخرافة في الاساطير هو ان الانسان البدائي كانت تجتاحه رغبة فضولية في معرفة أمور الحياة ، جعلت الانسان متعطشا دائما الى المعرفة ، والى تنشيط ادراكه العقلي .

يقول الدكتور تيلور في كتابه « الحضارة البدائية » : « حين كان ذهن الانسان في المرحلة الاسطورية يعجز عن تفسير اية ظاهرة ، ولا يجد لها سببا مقنعا ، كان يخترع أية قصة لكي يبررها ويفسرها » .

ونجد مصداق هذا القول في كل الاساطير البدائية ، فمعظم هذه الاساطير ليس الا محاولة لتفسير ظواهر معينة ، وللاجابة عن اسئلة غامضة مثل : ما أصل هذه الظاهرة او تلك ؟ وما سببها ؟ كيف خلق العالم والانسان ؟ وكيف أصبح على ما هو عليه الآن ؟ كيف تكونت هذه العادات والاوضاع والطقوس ؟ ما السبب في تعدد الوان الحياة ؟

ان الاجابة عن هذه الاسئلة هي التي أدت الى وجود الاساطير .. بل انها ادت الى وجود العلوم ، وان كانت علوما بدائية تتخذ اسلوبا قصصيا . وفي هذا يقول الدكتور لانج : « لقد كان الناس في العصور القديمة يؤلفون قصصهم تبعا لنظرتهم الخاصة للاشياء ، واسلوبهم في تفسير الامور . وهذا وضع طبيعي ، لانهم لم يكونوا يفكرون على أساس المبادىء التي يضعها الباحثون في العصر الحديث امامهم عند تفسيرهم لهذه الامور »

ويقول الدكتور مويللر : « ان الانسان البدائي لم يكن يفكر كما نفكر نحن ، بل ولم يفكر بالطريقة التي نتصور نحن الآن انه كان يفكر بها أيضا » .

أولا : القصة الاسطورية قبل أندرسن

١ تمهيد

ادركنا مما سبق ان الادب المدون الذى نعرف أسماء مؤلفيه لم يكن اول ما عرفته البشرية من آداب فى تاريخها الطويل . فقد سبق ذلك مراحل عدة كانت الآداب فيها غفلا من الاسماء ، وكانت الاجيال تتناقلها بالكلمة المسموعة ، اذ لم تكن هناك وسائل للتسجيل ، كما لم يوجد المؤرخون الذين يتتبعون التراث الذهنى عبر القرون . ومع ذلك فقد انتقلت قصيدة الشعر أو الاقصوصة من جيل الى جيل بطريق الرواية والسمع . ولعل ما أدركته البشرية من هذا التراث بعد أن توافرت لها وسائل الكتابة والتسجيل لم يكن سوى آثار واهنة وقطرات من بحر غزير .

وبرغم ذلك فقد وصلنا من تلك الاحقاب السحيقة عدد لا يستهان به من القصص والملاحم التى كانت وما تزال الورد الصافى لعباقرة الأدب والفن فى جميع أنحاء العالم .

فهناك البطوليات والاساطير الدينية التى كانت حافلة بالمشاهد الحية والصور الوصفية الرائعة .

وهناك « الامثال » التى كانت تجمع بين المتعة والمغزى الاخلاقى . والقصص التى كانت لا تهدف الا الى التسلية بغض النظر عما تتركه هذه التسلية من اثر اخلاقى أو غير اخلاقى على الجماهير .

كما كان هناك أيضا القصص الشعبى القائم على الخيالات الشعرية المحدودة التى لا ترقى الى مستوى الملاحم ولا تستخدم القالب الدرامى .

واذا نظرنا الى المجموعات الخمس من « الاقاصيص الاسطورية » التى خلفها اندرسن نجد انها تحوى أشياء اخرى غير الاقاصيص الاسطورية ، فبها حكايات نثرية بعضها يصل الى الرواية الطويلة مثل « قصة من الكثبان » ، وهناك بعض الاساطير المبنية على العقائد المحلية مثل « الملاك » ، وهناك الامثال مثل « القوقعة وشجيرة الورد » ، وهناك اخيرا لقطات من الحياة اليومية ، وخيالات على شكل أشعار منثورة مثل المجموعة التى ضمنها كتابه « المصور بلا صور » والتى كان يمكن أن تدخل فى نطاق قصصه الاسطورية الـ ١٥٦ .

من هذا يتبين لنا ان اندرسن قد طرق جميع الأشكال القصصية التى كانت معروفة فى ذلك الوقت . على ان ذلك النوع بالذات من

الأقاصيص القصيرة البسيطة التى تحتوى على مضمون طبيعى أو خارق للطبيعة ــ هى اساس اعماله جميعا وهى العنصر الجوهرى بها . اما جميع الاشكال الاخرى فهى لا تذكر الا لوجودها بجوار هذا النوع الذى تفرد به اندرسن ونقل به القصة الاسطورية عامة الى أجواء جديدة وصبها فى قوالب مبتكرة لا يمكن أن تأتى الا عن فنان مطبوع وفكر متوقد واحساس دقيق .

٢ ــ مرحلتان

لعل أول الاقاصيص المعروفة ــ والتى أصبحت بعد ذلك مصدرا ونموذجا لكل ما تلاها من قصص ــ هى تلك المقطوعات الصغيرة المسماة بالقصص الشعبية ، أو « الحواديت » مثل « عقلة الاصبع » و « سندريلا » وغيرهما . ان هذه الاقاصيص تعنى بالنسبة للتراث الادبى ما تعنيه المفاصل فى علم الحيوان ، وكلما توافر لها قالب « وتكنيك » سليمان تبينت أصالتها وازدادت أهميتها .

واهم ما يميز هذا النوع من القصص هو البداية الموحدة التى تكاد تتفق عليها جميعا ، فنادرا ما نجد واحدة لا تبدأ بهذا «الكليشيه» الذى لا يتغير : « ذات يوم .. » أو « فى سالف العصر والاوان .. » . وهى تختلف عن صور الادب الفنى بما تتخذه من طابع متشابه فى عرض الاحداث ، فالحادث الذى يقع فى قصة ماقد يروى بالالفاظ نفسها فى القصة الاخرى . وعادة مايكون الاسلوب مختصرا ومبسطا للغاية وجاريا على نسق موحد مطرد كالحال فى قصة « الاخوان الثلاثة » الذين توصف حياتهم بعبارات تكاد تكون متشابهة . وكذا الامر عند رسم الشخصيات : فالرجل الطيب شخص لطيف ، والماكر ذكى أما السكير فسكير فقط . بل واحيانا مايكتفى بأقل من ذلك ، فالسكير معروف من أفعاله ولا شىء غير ذلك ، أما البطل وافعاله فهما شىء واحد ومترادفان لكلمة واحدة . ولايعرف القصص الشعبى أى نمط آخر لعلم النفس .

وكذلك الامر بالنسبة لتصور هذه القصص للعالم الذى نعيش فيه ، اذ تقول هذه القصص : ان هناك فئتين من الكائنات : فئة طبيعية وأخرى خارقة للطبيعة ، الفئة الاولى مغلوبة على أمرها عاجزة لا تملك حولا ولا قوة ازاء غيرها ، ولكنها قوية بانجازاتها فى الحياة . اما الفئة الاخرى وهى الخارقة للطبيعة فذات قوة وسلطان ، ولكنها مقيدةبقوانين خفية . فنحن نعرف مثلا أن الانسان مرتبط بالكلمة التى تصدر منه ــ من الناحية الاخلاقية فحسب ، أما عفريت القمقم فهو عاجز تماما عن الرجوع فيما وعد به ، وليس له خيار فى هذا ، ولذلك فان العفريت يضطر أحيانا ــ تحت هذا القضاء المحتوم من الطبيعة التى لا ترحم ــ الى استعطاف الانسان على مافيه من ضعف .

وكثيرا مانرى الشخصيات تعود للظهور فى قصص اخرى بالسمات والملامح نفسها : « فالملك » لا هدف منه ــ غالبا ــ سوى أن يكون والد الاميرة ، و « البطل » هو الذى ياخذ دائما هذه الاميرة ومعها نصف

الملكة .. ثم هناك الطفلة اليتيمة وزوجة الاب الخ ... وتتفاعل هذه الشخصيات ازاء المواقف المتشابهة بطرق متشابهة ايضا : عندما تضيق الحال بالزوجين ياتي اليهما شخص مجهـــول ليقدم لهما العون نظير أن تعطيه الزوجة مولودها الذى مايزال جنينا ، واذا رغبت الاميرة في كتمان امر ما فانها تتظاهر بالخرس . وعندما يفقد الزوج زوجته يتزوج مرة اخرى من اجل ابنته الطفلة ، ولكن الزوجة الجديدة تدبر للطفلة المكايد والحيل والدسائس التى تجعل أباها يتنكر لها ، وهكذا ..

ان الاطار الذى يحيط بالقصة الشعبية هو « الطبيعة » بأجـل صورها ، وهى لا تبدو فيها سافرة ، ولكنها تتدخل فى مصير الانسان بصورة غير مباشرة . وهى مكتظة بالكائنات الغريبة ولديها كثـــير من القوى الايجابية الفعالة ولكنها رمزية ايضا ، فعند وفاة العاشقين تزهر على قبريهما وردتان وتنبثق عند قبر العذراء زهور السوسن البيضاء. وفى استطاعة « الواصلين » أن يضعوا الطبيعة بكل مالديها من قوى ومافيها من كائنات طوع ارادتهم ببعض الرقى والتعاويذ .

وتعتبر هذه السمات الاخيرة ذات أهمية كبيرة بالنسبة لتـاريخ القصة الشعبية ، فالقصة الشعبية بصورتها الاصلية تتضمن أساسا من السحر الذى كان يمثل « المعرفة » ويحل محلها عند الشعوب البدائية. وكلما بعدت القصة عن هـــذا الاعتقاد في الخوارق الطبيعية قل نصيبها من البدائية .

ان القصص الشعبية عالمية المدى ، فانت تجد فى كل مكان القصص نفسها أو على الاقل الموضوعات نفسها برغم مايفيض عليها أحيانا من ملامح اقليمية ، أو صبغات قومية ، فاذا أزيلت هذه القشرة بدا الجوهر واحدا فى كل انحاء الدنيا ، والسبب ببساطة هو أن القصة التى تصاغ فى قالب يتلاءم مع مكان معين لا تحمـــل فى طياتها امكانيات العالمية ، وبمرور الوقت نجد انها قد اصبحت تقليدا محليا سرعان مايموت .

والقصص الشعبية بقدر ماهى غير مقرونة بوطن فانها أيضـــا لا عمر لها ، فالنصوص التى وردت فى الادب الكلاسيكى القديم تكشف لنا عن الخصائص القائمة نفسها فى اى بلد وفى أى زمان ، وليست الروائع التى خلدت كثيرا من الأدباء في جميع أنحاء العالم سوى استيعاب جديد لأساطير خالدة نشرت باللاتينية اليونانية منذ أقدم العصور .

***

المرحلة الاخرى من القصص الشعبى بعد المرحلة البدائية أتت بنوع من القصص لم يكن هدفه سوى اضـــحاك الناس . ويسمى هذا النوع بالفابليو **Fabliaux** وهو عبارة عن حكايات هزلية منظومة . وقد وجدت اول ماوجدت فى الاوديسا وفى بعض أعمال هيرودوت ، كما ظهرت فى اول هزلية فى التاريخ « ساتيريكون » التى كتبها «بترونيوس» أيام نيرون . وسرعان ماعبرت هذه القصص حدود فرنسا لتظهر فى أعمال « تشوسر » بانجلترا ، وأعمال بوكاتشيو فى ايطاليا .

ولغة قصص الفابليو هى فى جوهرها اللغة نفسها فى قصص الاطفال على ان هناك عدة اختلافات أساسية بينهما .

فقصص الفابليو لا تبدى معرفة كبيرة بالنباتات والحيوانات بخلاف الاخرى .

كما ان قصص الاطفال لا تعنى كثيرا بأسماء الاشخاص الذين يرد ذكرهم فيها فاننا نجد غالبا « الراعى » و « قاطع الاشجار »و «الصياد» و « الرجل الفقير » أو « عقلة الاصبع » .

اما قصص الفابليو فانها تورد الاسم العلم لكل شخصياتها تقريبا وان كان هذا يأتى بطريقة هزلية بطبيعة الحال .

ومن ناحية اخرى فان قصص الاطفال تتحدث عادة عن ثلاثة أجيال مختلفة : الاباء والابناء والحفدة ، وتحكى عن الحب الذى ينمو بين الصغار والذى ينتهى بهم الى الزواج .

أما قصص « الفابليو » فهي لا تهتم كثيرا بالاجيال المختلفة وتكتفى بتقديم لقطات من الحياة الزوجية .

وهناك فرق من ناحية الموضوع ايضا : فموضوع قصص الاطفال هو اطفال الدم الملكى والاطفال العاديون معا ، ونجد فيها ايضا الفلاحين والصيادين . أما أصحاب الحرف فلامكان لهم بها ، كما أن هذهالقصص تتضمن دائرة واسعة من العــــلاقات الانســـــانية بين أناس ذوى مراكز مختلفة مما ربما لا يحدث فى واقع الحياة .

أما قصص « الفابليو » فتتسم بالواقعية ، كما أنها تموج بأصحاب الحرف المختلفة وشخصياتها من الطبقات الفقيرة فى غالب الامر . وتكاد تكون الفابليو ــ بواقعيتها الحادة ــ قريبة من « الفـــــــارس » ــ ذلك اللون الدرامى المغرق فى الكاريكاتورية الصارخة .

وتتردد فى قصص الاطفال الاشياء الزاهية مثل المجوهرات والذهب والرخام . أما قصص الفابليو فلا تعرف هذه الاشياء وأكثر من ذلك : فبينما يحصى أطفال القصص الاولى قطع الذهب لا نجد مع الاخرين سوى أصغر القطع النقدية ، وفى الوقت الذى تهتم القصص الاولى بوصف الجمال والقبح الانسانى لا نجد فى الاخرى اى اهتمام بالمظهر الخارجى .

وفى قصص الاطفال حد فاصل بين الطيبين والاشرار ، وهىتقف عند هذا الحد ، أى انها لاتزج فى هذا التمييز بالدراساتالسيكولوجية . اما فى قصص الفابليو فلكل الرجال ملامحهم المميزة : هناك المجــد ، والكسلان وهناك الفطن والغبى .

وثمة فارق اخلاقى بين قصص الاطفال وقصص الفابليو : فبينما تتسم الاولى بالطهر المطلق نرى الاخرى على النقيض ، فهى تبدى ميلا الى الفسق ، وأحيانا تناصر المرأة الخاطئة على زوجها الغبى .

وتقودنا المقارنة التى أوردناها بين هذين النوعين من القصص الشعبى الى قضية ماتزال موضع اهتمام جميع المهتمين بالادب الشعبى فى انحاء العالم ، ولقد اثار هذه القضية ذلك التساؤل : هل القصـــة الشعبية أخلاقية أو غير اخلاقية ؟ هناك من يقطع بأنها غير اخلاقيـــة

ويدلل على ذلك بعدد من القصص ومنها قصة « الاميرة وراعى الخنازير » التى لم تكن فى صورتها الاصلية – اى قبل أن يتناولها اندرسن بالتعديل – سوى قصة نصاب يغتصب اميرة بريئة .

على ان الاجابة عن هذا السؤال سوف تبدو سهلة اذا ما تذكرنا الفرق بين النوعين اللذين ذكرناهما آنفا : ان القصة البدائية اخلاقية : فالبطل والبطلة يمثلان قوى الخير التى تنتصر فى النهاية على الاشرار . اما قصص المرحلة الاخرى فهى لا تهتم الى حد كبير بالاخلاقيات ، وهى تحس بعطف زائد على المتشردين ، بل انها أحيانا ماتقدم المتعة والتسلية عن طريق التندر بفضائل الطبقة المتوسطة والسخرية من اكابر الناس .

ومن المفيد ايضا أن نذكر فرقا آخر بين القصص البدائية وقصص المرحلة الاخرى – وهو أن الاولى أكثر أصالة من الاخيرة ، ان قصص الفابليو مثل قطعة الجلد الجميلة المصنعة ، اما القصص البدائية فتعتبر حيوانا حيا مازال ملفعا بفرائه .

واخيرا لو نظرنا الى الحياة الفكرية والروحية التى نبتت فيها القصص الشعبية قبل اندرسن نجد أنها كانت متأثرة بثلاثة أفكار :

أولا : الوجود أعجوبة ، والواقع نفسه معجزة .

ثانيا : العناية الالهية – أو قوى الخير – تقدم عونها للتعسين اذا كانوا طيبين .

ثالثا : لابد لنا من ان نقاسى كثيرا قبل ان نستطيع قهر القوى المناهضة لنا ، ولن يخيب جهد الذى يسمع نداء ضميره ولا يتخلى عن واجبه .

٣ – القصص الشعبى والأدب

لاشك أن القصص الشعبى قد لقى استحسانا جماعيا منذ أقدم العصور من الشعوب التى كانت تسمع فقط دون أن تتاح لها فرص التعلم والقراءة ، وبرغم ذلك فلقد واجهت هذه القصص عداء سافرا من الشعوب القارئة . ولعل أسباب قلة ماوصلنا من القصص الشعبى الخاص بالعالم القديم هو أن اناسا مثل أرسطو وشيشرون وغيرهما من الكتاب الذين ملكوا ناصية الفكر فى عصرهم – كانوا متعاظمين على مثل هذا النوع من الادب .

ولقد عرف التاريخ محاولتين – قبل ظهور الطباعة – قام بهما بعض الباحثين لتدارك هذا التراث المهمل :

كانت المحاولة الاولى حينما اقترب رهبان البوذية من عالم الاساطير العجيب فى الهند ليستفيدوا منه فى تطعيم طقوسهم وأدعيتهم بالامثلة والصور الحية التى تجعل تلك الطقوس اقرب الى قلوب العامة واكثر جذبا لهم .

أما المحاولة الاخرى فكانت فى أواخر العصور الوسطى حينما قامت الكنيسة المسيحية بالعمل نفسه ، وليس من الصعب أن ندرك الحوافز التهذيبية التى دفعت القسس الموقرين الى اللجوء الى القصص البدائية دون « الفابليو » لما تتسم به الاخيرة من تهكم وسخرية بغير اخلاقية .

وبعد هذا الاهمال الزائد الذى لقيته القصص الشعبية من الاقدمين لم يتصور أحد أن يوليها عصر النهضة اهتمامه بل ان يضعها فى تلك المكانة المشرفة ، ولقد استفاد الادب الشعبى من ظهور المطبعة فسرعان ما تلقفت الأيدى فى لهفة الطبعات المتوالية من « ديكامرون » لبوكاتشيو و « الليالى المرحة » لسترابارولا وغيرهما من الاعمال التى تدين بجزء كبير من نجاحها لما استقته من مادة من القصص الشعبية وقصص « الفابليو » التى تظهر فى جلاء فى كل منها .

ورفض الشعر الفرنسى الكلاسيكى — مثل شعر « بوالو » ودائرته الادبية — الاعتراف بالقصة الشعبية ، ولكن سرعان ماانتصرت فى صراعها ضد الكلاسيكية واستعادت مجدها الغابر . ويرجع الفضل فى هذا الى « بيرو » وهو من أول الابطال الذين ناصروا الحديث على القديم . وتعتبر مجموعته القصصية « الاوزة الام » أول واشهر مجموعات القصص الشعبى . وجاءت بعد « بيرو » عدة محاولات لترجمة القصص الشعبى الشرقى — وعلى رأسها ألف ليلة وليلة — الى الفرنسية وغيرها من اللغات .

ولعل أهم مافى الامر ان هذه المحاولات كان لها اثر ملحوظ على أدب القرن الثامن عشر من الدراما الى الاقصوصة الى الرواية الطويلة . ونذكر على سبيل المثال « الايكة » لكريبلون الصغير وبعض اعمال « ديديرو » ثم الهزلية التى كتبها الكاتب الدانمركى « برام » بعنوان « الحالم » . وربما لا يعرف الكثيرون أن « فولتير » — خير كاتب يمثل ذلك العصر — قد تأثر الى حد كبير بروح الاقاصيص الاسطورية، واعجب أيما اعجاب بالقصص الشعبية أوروبية كانت أو شرقية . وبدا ذلك الاثر واضحا فى أهم اعماله : « أساطير وحكايات فلسفية » « وكانديد أو التفاؤل » و « زاديج أو القدر » وغيرها .

ومما هو جدير بالذكر أن فكرة كتابه « القدر » مبنية على قصة شعبية شرقية اسمها « الملاك والناسك » .

واقتفى اثر فولتير عدد كبير من الكتاب ، ونستطيع أن نقول : انه حوالى عام ١٨٠٠ كانت القصة الشعبية قد تحررت من اقمطتها وتحولت الى فن أدبى له أهميته .

وبظهور الحركة الرومانتيكية فى المانيا التى كانت بشيرا بالحركة الرومانتيكية فى الدانمرك — بلغ الاهتمام بهذا الفن الأدبى الجديد ذروته . فلم يقتنع الكتاب الدانمركيون أو الألمان أمثال « هوفمان » و « أوهلنشليجر » و « انجمان » بادخال روح الاقاصيص الشعبية

وموضوعاتها فى أعمالهم المسرحية ، بل لقد طمحوا الى تجديد شباب القصة الاسطورية ذاتها .

والواقع ان الربع الاول من القرن الماضى كان عصرها الذهبى ، فلقد استحوذت فى تلك الآونة على خيال العالم ، وغذته فى جراة بأحلام اليقظة والتأملات الوردية وخضبته فى الوقت نفسه برمزية أكثر عمقا . على انه برغم كل الجهود التى بذلت لبث حياة جديدة فى الاقصوصة الشعبية فات الجميع الاهتمام بأمر فى غاية الأهمية :

فقد اهملوا القالب المتماسك المحدود الذى كان موضع احترام القرن الثامن عشر ، اهملوه لكى تصبح للكتاب امكانيات التصرف بحرية أكثر فى عالم التخيلات . ونسوا فى هذا أن القصص الشعبية القديمة كانت مقيدة الى درجة كبيرة بنظرة معينة لحياة تختلف تماما عن الحياة فى العهد الجديد للرومانتيكية . لم يدركوا أن تخيلاتهم المضطربة ، ورؤاهم الميتافيزيقية تختلف فى الواقع عن الايمان البكر الذى تتسم به القصة الشعبية .

وبرغم أن تلك الفترة كانت تعتبر العصر الذهبى للقصة الشعبية فاننا لا نكاد نجد انتاجا يستحق الاهتمام سوى ذينك الكتابين اللذين قراتهما أوروبا كلها ــ ومازالت ــ وهما : القصص الاسطورية لهوفمان ومجموعة القصص الشعبية لاخوان جريم .

والسبب فى شموخ هذين العملين وسط كل الانتاج الذى ظهر فى تلك الفترة هو ان مؤلفيهما هما الوحيدان اللذان ادركا أن ثمة رابطة بين الاساس والشكل فى القصص الشعبية وان هذه الرابطة لا يمكن تحطيمها .

ولقد وجه « هوفمان » القصة الشعبية وجهة جديدة بتحويلها الى فن جديد وصبها فى قالب القصة الخيالية ، وكان ذلك فى غاية الأهمية لاندرسن . أما القصص التى جمعها اخوان جريم فقد كانت فى متناول أبسط الافهام والمدارك ، كما انها تتميز باحتفاظها بجزء كبير من طابعها الاصلى . لقد بذل الاخوان كل جهد صادق وأمين لابراز المضمون الاصلى فى لغة تكاد تكون مطابقة للغة الكلام . لقد حاولوا ــ باختصار ــ أن يبعثوا من جديد القصة الشعبية بكل ما بها من فطرة وأصالة .

وهنا تسلم الشعلة هانز كريستيان أندرسن .

ثانيا : قصص أندرسن الاسطورية

١ ـ الفكرة

كان على اندرسن ان يأخذ على عاتقه استمرار القصة الشعبية ، ولكن لكى يفعل ذلك استلزم الامر تدخلا شخصيا من جانبه . وقبل أن ينجح فى اعادة الشباب الى فكرة القصة الشعبية ومضمونها وقالبها كان لابد من مروره بعملية من التطور الذاتى ، الامر الذى كان شاقا عليه للغاية . اذ كان من الضرورى ان يصبح ذلك واقعا ملموسا له ، والا اصبحت قصص اندرسن واحدة من المجموعات المتعددة التى ظهرت فى القرن التاسع عشر ، لا مكانة لها سوى أنها تحتل بضعة سطور فى كتب التاريخ الادبى .

ويدين اندرسن بتجديده للفكرة فى القصة الشعبية الى «أورستد» اكبر الباحثين الدانمركيين فى ذلك العهد ، ففى أحد أعماله المبكرة اتخذ اندرسن فكرة ما ـ دون أن يقتنع بها ـ وهى كون الانسان مرتبطا بالطبيعة ومقرونا بارادتها . وترجع هذه الفكرة الى العصور الوسطى ولكنها كانت مشكلة قائمة فى الفترة الرومانتيكية . وكان العمل الذى ضمنه أندرسن هذه الفكرة هى القصيدة الدرامية المسماه « أجنيت والجنى » وتضايق أورستد الذى كان يعتبر اول من تنبه لنبوغ الفتى، تضايق أن يلجأ أندرسن الى مثل هذه الافكار التى انتهكها الرومانتيكيون، فأخذ على عاتقه تعليم اندرسن أفكاره التى ضمنها كتابه « روح الطبيعة » وهو حصيلة عمره الطويل وقراءاته الكثيرة فى الروحانيات والعقائد .

والفكرة الرئيسية التى تضمنها كتاب « أورستد » هذا بسيطة وعظيمة فى الوقت نفسه : فهو يقارن بين الروح والطبيعة ، بين الواقع والمعجزة التى تعتقد فى هذا العصر مجرد وهم ، انه يقول : ان قوانين الطبيعة ماهى الا أفكار الله ، وان الطبيعة هى الروح ، والواقع نفسه معجزة . وتلك هى الفكرة التى اخذها اندرسن ، وهو يوردها بطريقته الخاصة فيقول ، وكثيرا ماكان يردد ذلك القول : « ان الواقع أجمل قصة اسطورية » ، وبهذا الاعتقاد المبنى على الاقتناع التام وضع اندرسن قدمه على أول الطريق الذى أنعش به القصة الاسطورية وبث فيها روحا جديدة ، كان الواقع فى نظره أكثر روعة وجمالا من ثمرات الخيال .

ان الفكرة فى اقاصيص اندرسن تستمد قوتها من الملاحظات الصغيرة الدقيقة لهذا العالم الملموس ، ومن احداث الحياة التى قد تبدو غير هامة ، ولكن نفس الشاعر كجهاز الرادار أو كالفيلم الحساس تنعكس

عليه أصغر الهنات . وعندما يلتقط الفنان احدى هذه اللفتات الصغيرة التى تمر بحياته ، ويدخلها معمل أفكاره باحثا فى أسبابها ونتائجها تكون النتيجة خروجه باقصوصة جديدة رائعة

لقد حاول اندرسن أن يستقل بنفسه عن مضمون القصة الشعبية القديمة ومن ثم فاننا نجده قد استعمل الحذر والحكمة فى طرق الناحية الاسطورية وخوارق الطبيعة . وفى قصتيه « الصديق الغائب » و « الاوزات البرية » نجد آثارا من الرمزية السحرية التى كانت موضع اهتمام القصاصين القدامى : ففى القصة الأخيرة نجد أن « جون » كانت لديه ثلاث ريشات من ريش الاوز ، وزجاجة صغيرة بها بضع قطرات من سائل سحرى . وقبل أن تدخل الأميرة للاستحمام يكون جون قد القى بالريشات والسائل السحرى فى الماء الذى تستحم منه ، وما ان تضع الاميرة الماء على جسدها حتى تنقلب فى الحال الى « ملاك » ... وما الى ذلك من المشاهد الخيالية التى كانت تمتلىء بها القصص فى ذلك الوقت .

ولكى نعرف الى أى مدى تطور اندرسن بأفكار القصة الاسطورية نجد ان قصة « الاوزات البرية » التى كتبها فى بدء حياته القصصية على طرف النقيض من قصصه الاخيرة ، ولنذكر على سبيل المثال « قصة أم » ، اذا كان الليل ، والبحيرة ، والشجيرة الشائكة ، وكلها استطاعت النطق فى القصة ، واذا كانت هذه تشخيصات لا نعرفها فى حياة الواقع فان حب الام الذى يصوره اندرسن لنا هو من أعظم القوى الطبيعية وأعجبها لاولئك الذين يعرفونه . أو فلننظر الى نوع النهاية التى كان يميل اليها أندرسن مثل نهاية «بائعة الكبريت الصغيرة» حيث نرى حركة الموت يسبقها احساس بالنشوة والراحة يسمو بنا فوق العذاب الدنيوى .

ولكن اندرسن لم يجمد عند الافكار التى لقنها اياه اورستد ، بل لقد أضاف اليها شيئا جديدا وهو أن العناية الالهية تحمى الصفوة التى تختارها ، وتمنحها كل عون ومساعدة . ولقد كان لهذه الفكرة أصل فى القصص الشعبية القديمة ، غير أن ثمة اختلافا كبيرا بين معالجة اندرسن لهذه الفكرة ومعالجة أسلافه ، فلقد كان ايمان اندرسن عميقا بالعناية الالهية كما اسلفنا ، ومن ناحية أخرى فان المدرسة الرومانتيكية القديمة كانت تعتقد أن العبقرية المختارة يأتيها العون عن طريق المصادفة ، اما أبطال أندرسن فانهم يستحقون النجاح الذى يصلون اليه .

لقد كان اندرسن يحسب انه من الصفوة المختارة ، وان فى استطاعته ، مثل أورستد ، أن يتصفح كتاب الطبيعة الضخم . واننا لنجد هذا الادراك بانه مبعوث للقيام برسالة ما فى احدى قصصه الاولى « خطوات الحظ » : لم يكن أندرسن بالغطرسة التى تجعله لا يعتقد أن كل انسان على وجه الارض مكلف واجبا نحو انسانيته ، سواء كان هذا الواجب كبيرا أو صغيرا .

واضاف اندرسن على ذلك فكرة ثالثة ، وهى ذات أهمية كبيرة

لنا لانها تساعدنا على تحديد « الحركة » فى قصصه . ومؤدى هذه الفكرة أن : « الحياة محفوفة بالصعاب »

عند بداية القرن التاسع عشر كانت القصص الاسطورية الجديدة فى الادب الالمانى والدانمركى مملوءة بالبهرج الكاذب والالوان البراقة التى توحى بأن الحياة ليست سوى لعبة تافهة .

واذا بأندرسن يصرخ فى كل صفحة من صفحات قصصه منـاديا بفلسفته الواقعية : « لابد لنا من اجتياز كثير من العقبات الصعبة » ولولا هذه الصرخة المدوية ما أصبح أندرسن الباعث للقصة الشعبية .

ان الرجل الذى خلف هذه الصور الحية الحديثة عاش حياة شجاعة شامخة ، حياة من العمل النابع من الطموح ، والتسليم الذى يبعثه الايمان ، ولقد كان يتمتع بصراحة فائقة منحتنا صورة أمينة لهذه الحياة ، صورة مشربة بالواقعية الحادة .

٢ ــ المضمون

بعد هذا العرض للافكار التى تطرق اليها أندرسن فى أقاصيصه يأتى دور المضمون ، وأعنى بالمضمون هنا عناصر التجربة الشخصية التى تتضمنها قصصه .

لقد استغرق الامر بأندرسن وقتا طويلا قبل ان يتعلم الكتابة فى هذا اللون الدقيق الذى يحتاج الى عناية فائقة ، فقد كانت ملكاته فى بداية الشوط جافة ومهوشة ، وكل ماكان فى مقدوره انما هو انتاج أعمال غير مترابطة ولا منسقة ، تعوزها الفكرة والقالب أيضا .

ولم تكن رواياته الطويلة ، برغم ما بها من امتاع ، سوى مجموعة من الخواطر المتراكمة فى غير ما بناء متماسك أو قالب منظم . وكان الموضوع السائد فى كتبه الاولى هو الكفاح من أجل الحياة .

ويعتبر كتاب « ضارب العود » مثالا لذلك : : فهو يصف الانسان الذى ناءت عليه أحداث الزمان . وهو كتاب بلا فكرة . كل ما أراد أن يقوله هو أنه يجب أن تذلل العقبات المادية التى تواجه العبقريات التعسه . انه مشروع انسانى كان أولى أن يكتب فى مقال لا فى رواية . ولا يمنع ذلك من كون الكتاب مليئا بالحياة والواقعية .

واننا لندرك بوضوح هذا التكديس للخواطر والثروات الوصفية للأشياء التى رآها أو خبرها اذا ما ألقينا نظرة على بضع فقرات من قصة حياته : أنظر الى بيته : أمه امرأة قوية الشخصية ذات عزيمة من حديد واحساسات متفجرة ، تؤمن بكل شىء تسمعه من القسيس أو ساحر القرية على السواء . وكان على ابنها أن يؤمن بعقيدتها أو عقيدة أبيه الرجل المنطقى وناقد الانجيل ، كما أصبح الشاعر نفسه كذلك تماما فيما بعد حتى الممات . وكان هذا الوالد أكثر غرابة وشذوذا من ذلك ، فقد كان اسكافيا يعمل بنفسهدون مشاركة أحد وكان عبقرية ريفية لهيدان فنانتان يجيد بهما صنع كثير من الأشياء الدقيقة . وكانت حياته تسيطر عليها

الأوهام ، ولقد تطـــوع في الجيش ليحارب تحت امرة نابليون ، ولكنه سرعان ماعاد من الحرب محطم النفس والروح والبدن • وكان جد أندرسن مجنوناً لا يكف صبيان القرية عن تعقبه والجرى وراءه الخ ••

واذا أضفنا الى كل ذلك ما قاساه من أجل أن يكتشف اتجاه مواهبه، ولكي يجعلها موضع احترام النقاد الادبية في عهده ، فسوف يكون مفهوماً أنه لا يوجد كتاب له أساس واقعي أقوى من قصص أندرسن الأسطورية • ولكن بدون ذلك فان هذه القصص الأسطورية لم تكن لتصير على ما هي عليه • ولو وقف أندرسن عند تقليد الوجهه الخارجية للقصص الأسطورية القديمه ما كان لينتج شيئا مما نراه الآن : صورة كبيرة للحياة بكل مافيها من خشونة وصدق •

ولقد كان أندرسن أخصب شعراء الدانمرك فيما يختص بعالم الواقع، فضلا عن سعة أفقه سافر الى ثلاث قارات ، كما أن الحياة فى الخارج أرهفت ادراكه بالطبيعة ، وأصبح مثل « يوليسيس» خبيرا بعادات عدد كبير من الشعوب • وأخيرا فقد كان أكثر خبرة وعلما بعادات بلاده وتقاليدها •

واذا أجرينا قطاعا رأسيا فى أعماله نجد أنها حافلة بفقرات وصفية لجميع المواقف فى الحياة • ولا يدانيه سوى (بلزاك) فى وصف هذا العدد الضخم من فئات الشعب على مختلف المستويات : فهذا أحد العبيد رهين الأصفاد فى زنزانته ، وهذه فتاة تكاد تموت من البرد فى الشارع ، وهذا هو الحارس الليلى ، وهذا قسيس ، وذلك فنان ، وتلك المجتمعات النبيلة ومجتمعات الطبقات المتوسطة •• الخ ••

أما القطـــاع الأفقى فيكشف لنا كيف وصف أندرسن كل أجزاء الدانمرك فى عهده : فاننا نجد جزيرة (فينين) فى قصـــة « الصــــديق الغائب » وكوبنهاجن فى « خطوات المجد » وزيلاندة فى القصص التى كتبها ابان اقامته فى بيوت الأعيان مثل « العائلة السعيدة » •• الخ ••

ويمكننا القول بأن أحدا من معاصريه لم يكشف عن احساس بجمال الطبيعة مثلما كشف أندرسن • وقد كانت كتابات شبابه غير حافلة بما يبين العلاقة الوثيقة بين الشاعر والطبيعة ، ولكن بعد رحلته الأولى الى ايطاليا انبثق بين جنبيه احساس طاغ بجمال كل ما تقع عليه عيناه فى الداخل والخارج كان الشاعر يدرك سر كل زهرة ــ سواء كانت برعما صغيرا أو وردة متفتحة تبهر بجمالها الأعين والقلوب • ان الفتاة الصغيرة فى «ملكة الثلج» تكشف للأزهار عن مكنون قلبها •

ولقد كان أندرسن على معرفة تامة بمباهج كل فصل من فصـــول السنة على حدة ، وكشف لنا عن هذه المباهج بادراك الفنان المرهف الذى لا تفوته فراشة هائمة أو جبل كبير توجته الثلوج ••

٣ ـ القالب :

حتى أولئك الذين لا يهتمون بأساس العمل الشعرى وأفكاره قدر اهتمامهم بقالبه الفنى ـ تقدم لهم قصص اندرسن قدرا غير قليل من المتعة، فلقد كان أندرسن منذ صباه يغذى ملكاته الشعرية من مدرستين شعريتين كانتا تقتسمان الدانمرك فى ذلك العهد • فتعلم من الشاعر «أوهلنشليجر» كيف يستعمل عينيه ، وكيف يستفيد من هذه الهبة الربانية التى جعلت فى مقدوره أن يرى ويحس كل شىء ، ويرجع الكمال الحسى الذى اتسمت به أعمال أندرسن النثرية فى الأصل الى الأسلوب الشعرى لمنظومات « أوهلينشليجر » •

أما مدرسة « هايبرج » فلقد أخذ منها أندرسن الكثير حتى لقد اعتبره البعض من تلاميذها المخلصين • وان تفوقه فى ابراز الصبغة المحلية فى قصصه ، وفى رشاقة عبارته ، وفى ومضات المرح التى تنتشر فى كتابته من آن لآخر ـ كل ذلك يعود الى ما أخذه عن هايبرج • ولكن اهم ما يدين به أندرسن لهايبرج هو ايمانه الذى لم يتطرق اليه شك بأن جميع الألوان الأدبية ـ حتى النثر الذى كان يحتل مكانة متأخرة فى تلك الحقبة من التاريخ الأدبى ـ يمكن أن تكون طريقا الى الشهرة والخلود •

وفى نظرى أن أندرسن لو لم يتعلم غير هذه النقطة لكفاه ذلك ، فلا شك أنها هى التى كانت تمد فى عمر آماله وعزيمته حينما كان ينتقل من لون أدبى الى آخر دون أن يحقق ما كان يصبو اليه • وهى التى جعلته يموت قرير العين وهو يعلم أن العالم لا يعترف به ـ وهو الذى كتب فى كل شىء ـ الا ككاتب قصص أسطورية ••

ان أندرسن لو لم يرسخ فى قلبه هذا الايمان الذى تلقاه من « هايبرج» لمات منتحرا بعد أن يلقى بجميع اعماله فى النيران ! وأى خسارة كانت تلحق بالانسانية لو حدث ذلك ؟

لقد جرب أندرسن حظه مع الرواية الطويلة ومع المسرحية ، ومع أن ما خلفه فيهما قد اثار بعض الاهتمام فانه لم يكن اهتماما باقيا • ويرجع ذلك الى ان هذين اللونين من الكتابه بما يتطلبانه من استعداد فنى ضخم ـ كانا فوق مستوى معلوماته ومداركه البسيطة • ولقد كتب بعض القصائد الطيبة ، ولكن النظم لم يسلم له القياد على أية حال •

على أننا اذا تتبعنا الخطوات التى بذلها أندرسن فى النثر والشعر منذ أول المطاف ، فانه سيكون فى مقدورنا أن نلحظ فى غير صعوبة أن ثمة عدة أماكن اثبتت فيها مواهبه وجودا لا يمكن تجاهله ، فكثيرا ما تصادفنا فى اعماله مقطوعات نثرية تتكشف فيها جوانب خفية من الحياة تبهر الأعين، كما لو أن ضوءا ساطعا قد سلط عليها على حين فجاة • ولقد نشر مجموعة من الصور النثرية هى بمثابة الأجنة لأعمال فنية فى كتاب أسماه « المصور بلا صور» ، وتبدو طريقته الشعرية فى هذا الكتاب أكثر مما تبدو فى أى عمل آخر •

وتعهد أندرسن البذرة الشعرية التى تضمنها هذا العمل المبكر حتى غدت ذات كيان ، وهو ــ وان كان بسيطا ــ استطاع به أن يصل الى خلق القصة الأسطورية ·

ومن الواضح أن أقاصيصه يمكن تقسيمها الى قائمتين :

فى الأقاصيص التى تنتمى الى القائمة الاولى لم يتجاوز أندرسن كونه راويا ــ من جديد وبلغة تقارب لغة العامة ــ لأقاصيص الأولين · ولنذكرمن هذه القصص « القداحة » و « الأميرة الحق » و « راعى الخنازير » ثم « ملابس الامبراطور الجديدة » ــ وهذه القصة الأخيرة مستقاة من أصل اسبانى · ولا بد من أن نذكر أن الشاعر قد جعل من قصص الفابليو والقصص البدائيه مصادر له · ولقد أبقى على الملامح الجوهرية فى تلك القصص مثل ضروب الخداع القديمة، بل انه بعث أسلوب التجريدوالتبسيط المتناهى الذى كانت تتسم به · ومما هو جدير بالذكر أيضا أن أندرسن قبل أن يعالج القصة الأسطورية كان قد أخذ يكتب قصصا مسلية منظومة مثل «بائعة اللبن والجرة» · التى كتبها على طريقة القرن الثامن عشر مقلدا (ويسيل) و (لافونتين) الكاتبين اللذين بعثا قصص « الفابليو » من جديد ·

أما القائمه الأخرى من قصص أندرسن فهى تتضمن قصصه الجادة ، مثل : « عروس البحر الصغيرة » و «الصديق الراحل» و «ملكة الثلج» و «الحذاء الأحمر» و «قصة أم» الخ ··

ولقد مارس الشاعر هنا كل حرية مع النماذج التى راقت له ، فلم يكن يعمل الا مدفوعا بخياله الخاص · وبطريقته الخاصة : مزج المرح بالعاطفة، والعطف بالسخرية ، والتعقل بالاندفاع ·

ومعنى هذا أن أندرسن عندما كان يتناول «الفابليو» ــ التى تستلزم ممارسة الفكاهة والنقد ــ فانه لا يفرض تغييرات بعيدة الغور على هذا النوع من التراث ، أما اذا كان يعالج مادة من مواد القصص الأولية ، فانه يقف ازاءها موقفا مستقلا للغاية · أو بمعنى آخر كان أندرسن يبعث «الفابليو» ويبث فيها الروح من جديد ، ولكنه طور القصص الأسطورية البدائية ·

ولقد وقف أندرسن هذا الموقف بعد كثير من التفكير ، ولكن لابد من اضافة حافز آخر ، من الأهمية بمكان ، يلقى الضوء على هذه العملية الجمالية · فلقد كان أندرسن يطمح الى خلق نوع من الأدب الشعبى العالمى ــ وفى القالب القديم نفسه ــ يتشرب كل الألوان الأدبية الأخرى·

وكان من عادته أن يناقش القضايا الأدبية والفنية فى رواياته ، وفى احداها ذكر رأيه عن أدب المستقبل · ومؤدى هذا الرأى أن أدب المستقبل لا بد أن يكون «موجزا ، وجليا ، وغنيا » · وكثيرا ما كان يردد هذه الألفاظ فى خطاباته · ولقد كان يطمح الى كتابة قصصه طبقا لهذا الرأى ·

على أن أندرسن لم يكتف بالاقاصيص يبث فيها الروح أو يطورها ، بل انه تعداها الى الألوان الأدبية الأخرى كي يصب موضوعاتها من جديد في قصص أسطورية · وهكذا فان في مقـدورنا أن نستشف الملحمـة الهزلية في قصة : « الجندى الصفيح الثابت » والهزلية الاخـلاقية في قصة « الراعية وكناس المدخنة » · وبهـذه الطريقة يمكن أن نقول ان أعماله قد أصبحت نوعا من الأدب العالمى المتنقل ·

وقد اصبحت قصصه بهذا المعنى بالنسبة للقرن التاسع عشر وربما بالنسبة للعشرين أيضا ـ كما كانت روايات فولتير بالنسبة للقرن الثامن عشر ، وتشبه أكثر اقاصيصه عمقا روايات فولتير ، فهى أقاصيص قصيرة تتضمن فكرة كبيرة · وفى مقدورنا أن نطلق على هذه الأقاصيص عناوين مزدوجة كما كان يفعل فولتير في «زاديج أو القدر» و «كانديد أو التفاؤل» · فيمكننا أن نقول بالنسبة لاندرسن : « قصة أم أو كتاب القدر المغلـق » و «بائعة الكبريت الصغيرة أو الاحسان» · ولـكن ربما كانت هذه العناوين المزدوجة أقل ملاءمة بالنسبة لأقاصيص اندرسن ، لأن الفكرة فيها واضحة برغم ان الشاعر لم يكن يدق على وترها دقا مباشرا ·

الفصـــل الثالث

قصص أندرسن شرائح من حياته

مقدمة :

الشريحة الاولى : الحذاء الاحمر

الشريحة الثانية : الكروان

الشريحة الثالثه : بائعة الثقاب الصغيرة

الشريحة الرابعة : الكرة والخذروف

قصص أندرسن شرائح من حياته

مقـدمة

يتضمن هذا الفصل عددا من أقاصيص هانز كرستيان أندرسن الاسطورية • وأنا لم أقصد هنا أن أضيف الى الكتاب بضع صفحات لا طائل وراءها ، أو الى أن تكون هذه الصفحات مهداة الى طفلك ، برغم أنها ستكون ذات متعة فائقة له ، وانما كان همي الأول في الواقع هو أن أضرب بعض الامثلة لما سبق ان رددته من أن حياة أندرسن كانت الحقل الأول الذى ضرب فيه بقلمه حينما اتجه بقصصه نحو الواقعية •

وهذه هي نقطة العبقرية لدى شاعرنا الكبير ، فاندرسن استطاع أن يزوج الواقع بالخيال ،ويخرج منهما نتاجا هو مزيج رائع من الاثنين • ان أندرسن لم يكتف بقراءة الاساطير التى تداولها الناس فى أيامه ، وروايتها من جديد ، بل أضاف الى ذلك «أساطير» أخرى استقاها من «واقع» حياته •

لقد وضع أندرسن حياته على المشرحة وأعمل فيها مبضعه الحساس ، فجاءت كل شريحة عملا ينبض بالتجربة والمعاناة الحق •

وسأورد قبل كل أقصوصة التجربة الضاربة في أعماق حياته والتى استلهم منها أندرسن تلك الاقصوصة • ان كل تجربة من تلك التجارب بمثابة البذرة التىألقى بها القدر فى تربة حياته فتعهدها أندرسن ــ الخلاق ــ وسقاها من روحه وفنه فخرجت شجرة ظليلة وارفة مثمرة •

فالى روعة التجربة ، وعظمة الخلق •• الى السر الذى ربط أندرسن بالخلود ••

الشريحة الأولى

« ٠٠٠ حان يوم التعميد الديني لسن البلوغ ، وأقبلت امه وجدته تسيران في تردد وحياء داخل الكاتدرائيه الكبيرة لتسمعا هانز وهو يجيب عن أسئلة المعمدان ويؤكد باجابته استمساكه بأهداب الدين ٠ وكان يرتدى بذلة أبيه البنية — بعد أن أعدت لتناسبه — وقميصا أبيض ناصعا ، وكانت تلك أول مرة في حياته يرتدى فيها مثل هذا القميص وحذاء جديدا ٠ وكان أخشى ما يخشاه ألا يرى كل من في الكاتدرائية حذاءه الجديد ، ومن ثم حرص على رفع « بنطلونه » ليبدو الحذاء بأكمله واضحا لكل ذى عينين وقد سره وملأ نفسه بالفخر صرير حذائه هذا الجديد وهو يسير ، فلا شك ان هذا الصرير سيعلن للجميع عن جدة الحذاء ، وفجأةاحس بالفزع وهو يتبين أنه في هذه اللحظات الدينية الحاسمة يفكر في أمر حذائه أكثر مما يفكر في أمر دينه ٠٠ انه يعرف أن هذا امر فظيع ٠٠٠ وانه ليستغفر الله ويبتهل اليه في حماس ، ولكنه وجد نفسه ، معهذا ، لا يزال منعما التفكير في حذائه ذاك الجديد ٠٠ »

***

الحذاء الأحمر

كان هناك فتاة صغيرة تدعى «كارين» لطيفة جداورقيقة ، لكنها كانت فقيرة رقيقة الحال ، فكانت تمشي في الصيف دائما عارية القدمين ، وتلبس في الشتاء حذاء خشبيا كبيرا يحمر منه كعباها الصغيران ويحتقنان وكانت تسكن في القرية صانعة الاحذيه ، فجلست ذات يوم وصنعت من بضع خرق من القماش الأحمر زوجا صغيرا من الأحذية · وكان الحذاء قبيح المنظر لكنه جاء ملاءما للفتاة الصغيرة فأعطتها اياه ·

وقد أعطيت « كارين » الحذاء الاحمر في اليوم الذي شيعت فيه جنازة أمها ، فلم يكن ذلك يناسب الحداد ، لكنها لم تكن تملك غيره فمشت به عارية الساقين وراء عربة الموتى ·

ومرت في تلك اللحظة مركبة كبيرة عتيقة تحمل سيدة ضخمة كبيرة السن ؛ نظرت الى الفتاة الصغيرة نظرة اشفاق وقالت للقس :

« اعطني الفتاة الصغيرة لأعني بأمرها » ·

وظنت « كارين » ان الحذاء الاحمر هو الذي حببها الى السيدة العجوز، لكن السيدة العجوز قالت : ان الحذاء مرعب · وأمرت بحرقه ؛ وألبست كارين الملابس الأنيقة ؛ وعلمت القراءة والاشغال ، وقال لها الناس : انها لطيفة ؛ لكن المرأة قالت لها : « انك لست لطيفة فحسب ، انك جميلة حقا!»

وحدث ذات يوم أن الملكة كانت تزور تلك البلاد ومعها ابنتها الأميرة، فتجمهر الناس ومن بينهم «كارين» أمام القصر ووقفت الأميرة بجوار النافذة في ثوب أبيض لكي يراها الجميع ، ولم تكن تجر ذيلا أو تحمل تاجا ذهبيا ؛ لكنها كانت تلبس حذاء لطيفا أحمر من جلد الماعز الرقيق ، ولكنه ألطف كثيرا من حذاء كارين الصغيرة ، لم يكن في الدنيا بأسرها ما يمكن أن يقارن بهذا الحذاء الاحمر !

وكانت كارين في ذلك الوقت قد بلغت السن التي تسمح لها بتلقي التعميد المقدس ، فأوصى لها بثوب جديد وحذاء جديد ، وقاس صانع الأحذية بالمدينة قدميها الصغيرة · وكانت الاحذية اللطيفة اللامعة معروضة في جوانب الحانوت في خزائن كبيرة من الزجاج ، لكن السيدة العجوز كانت ضعيفة البصر ؛ فلم تجد ما وجدت كارين من سرور وهي تتطلع الى الاحذية · وكان بين الأحذية زوج أحمر يشبه الذي تلبسه الأميرة كل الشبه ، وكان زاهيا، وقال صانع الأحذية : انه كان قد صنع خصيصا لفتاة من احدى العائلات الكبيرة لكنه لم يلائمها ·

وقالت السيدة العجوز : «انه من جلد لماع فانظري كيف يلمع؟ فصاحت كارين : « أجل انه يلمع بشكل بديع · » ولما كان الحذاء قد ناسبها فقد

اشترته العجوز لها .. لكن السيدة العجوز لم تكن تدرك أنه أحمر ، ولو أدركت ذلك ما اشترته ، لأنها لم تكن تطيق أن تذهب كارين الى التعميد المقدس في حذاء أحمر . ولكن كارين لبسته وذهبت به ، فكان الكل ينظرون اليها ، وخيل لها وهي تمشي ان كل شيء حتى التماثيل القديمة المنحوتة وهي واقفة في أثوابها الفضفاضة السوداء تصوب أنظارها الى حذائها الاحمر . وكانت كارين لا تفكر في غير هذا الحذاء حين وضع الأسقف يده فوق رأسها ، وحين أخذ يتكلم عن التعميد المقدس وكان الناى يبعث نغماته العميقة الرهيبة وأصوات الاطفال الحلوة تختلط بأصوات أفراد جماعة المنشدين ، لكن كارين كانت لاتزال تفكر في حذائها الأحمر ، ولا تفكر في شيء غير حذائها الاحمر .

وفي عصر ذلك اليوم حين اخبرت السيدة العجوز بأن كارين كانت تلبس حذاء أحمر ، اغتاظت غيظا شديدا ، وأبلغت كارين أن الحذاء لا يناسبها مطلقا ، وانه يجب عليها بعد الان ـ كلما ذهبت الى الكنيسة ـ أن تلبس حذاء أسود مهما كان قديما .

وفي يوم الاحد التالى نظرت كارين الى حذائها الاحمر أولا ثم حولت بصرها الى الحذاء الاسود ، ثم نقلته ثانية الى الاحمر ولبسته .

وكان الجو مشمسا بديعا ، ومضت كارين والسيدة العجوز الى الكنيسة بين حقول القمح في طريق كثير الغبار .

ووقف على باب الكنيسة جندى عجوز وهو متكىء على عكازين ، له لحية طويلة ، لكنها مصبوغة بصبغة حمراء ، وانحنى حتى لامس الارض ، وسأل السيدة العجوز : هل تسمح له بازالة الغبار عن حذائها ومدت كارين قدمها الصغيرة أيضا ، فقال الجندى العجوز : ما ألطف حذاء الرقص هذا ! احذرى أن يفلت من قدميك حين ترقصين ، ومر بيديه فوق الحذاء .

ونقدت السيدة الجندى العجوز نصف بنس وتوجهت مع كارين الى الكنيسة .

وتأمل كل واحد حذاء كارين الأحمر حتى كأنما صوبت التماثيل المنحوتة أيضا نظرها اليه ! وعندما ركعت كارين أمام الهيكل كان الحذاء الاحمر لا يزال ماثلا أمام عينيها ، فكانت تفكر فيه ولا تفكر في غيره ، ونسيت أن تشترك في النشيد وغفلت عن ترديد الصلاة . وأخيرا خرج الناس كلهم ، وركبت السيدة العجوز مركبتها ، وكانت كارين تهم بأن ترفع قدمها حين صاح الجندى العجوز الواقف بالباب يقول : انظروا ماألطف حذاء الرقص هذا !

وما ان فرغ الرجل من كلامه حتى أحست كارين أنه يجب أن ترقص بضع خطوات ، وما ان بدأت حتى اندفعت قدماها تتحركان كأنما للحذاء سلطان عليهما ، ورقصت حول المقبرة ، ولم تستطع أن

تكف عن الرقص فاضطر الحوذي الى الجرى وراءها وامسك بهـــا ورفعها الى المركبة. لكن قدميها كانتا لاتزالان ترقصان حتى أنها ضربت بهما السيدة العجوز ضربة قاسية ، وأخيرا خلع الحذاء فسكنت القدمان عن الحركة .

ثم وضع الحذاء في خزانة ، ولكن كارين لم تستطع مقاومة نفسها في الذهاب لرؤيته حينا بعد آخر .

ومرضت السيدة العجوز ولازمت فراشها . وقال الطبيب : انها لن تعيش طويلا ، وكانت بحاجة الى من يعنى بتمريضها ، ومن ذاالذى يمرضها ويقوم على خدمتها الدائمة غير كارين ؟

ولكن حفلة رقص عظيمة كانت ستقام فى المدينة ، وكانت كارين من المدعوات ، فنظرت الى السيدة العجوز التى كانت تحتضر ، ونظرت الى الحذاء الاحمر فلبسته ثم ذهبت الى المرقص وأخذت ترقص .

لكنها حين أرادت أن تتحرك نحو اليمين حملها الحذاء يسارا .. وحين أخذت ترقص فى القاعة الى الامام أرقصها الحـــذاء الى الخلف وأنزلها على السلم رقصا ، ودفعها الى الشوارع ، وخرج بها منأبواب المدينة ، ومضت ترقص ولم تستطع الكف عن الرقص حتى بلغت الغابة المظلمة .

ورأت فجأة ضوءا بين الاشجار فظنت أنه وجه القمر يسطع من خلال ضباب الليل بنور أحمر ، ولكنه لم يكن وجه القمر بل كان وجـــه الجندى العجوز صاحب اللحية الشقراء ، كان يجلس هنـــاك ويومىء برأسه ويردد :

ـ انظروا ماالطف هذا من حذاء للرقص .

فانزعجت انزعاجا شديدا ، وحاولت أن تلقى عنها حذاءها الأحمر لكنها لم تستطع فكه ، بل انها مزقت جوربها ولم تستطع التخلص من حذائها ، وكأنه قد ثبت على قدميها . ومضت ترقص على الرغم منهـــا فى الحقل والمرعى ، فى المطر وفى أشعة الشمس ، بالليل والنهار .

نعم كانت ترقص بالليل ! وكان الرقص فيه مروعا ! فرقصت فى المقبرة الموحشة ، لكن الاموات هناك لم يرقصوا بل كانوا يستريحون وكانت تتمنى لو جلست فوق قبر الرجل الفقير ، لكنها لم يقدر لها أن تحظى بالراحة لحظة واحدة .

ومرت وهى ترقص بباب الكنيسة المفتوح فرأت هناك (ملاكا) فى ثياب بيضاء له جناحان يصلان من كتفيه الى الارض ، وكانت على وجهه أمارات الجد والقسوة ، وفى يده سيف عريض يلمع .

قال : سترقصين ، فارقصى فى حـــذائك الاحمر حتى يصيبك الشحوب ، وتبرد أعضاؤك .. وينكمش جلدك .. ويتقلص كجـــلد

الهيكل العظمى ! سوف ترقصين من باب الى باب ، وحيث أطفال مغرورون ستدقين الباب ليسمعوك ويخافوا منك ، سترقصين ، فامضى فى رقصك ».

فصاحت كاترين : الرحمة .. لكنها لم تسمع جواب (الملاك) لان الحذاء حملها من الباب الى الحقول ثم الى الطرق ، وداخل الأزقة .

وفى ذات صباح مرت بباب وهى ترقص وكانت تعرفه جيدا ، فسمعت الأناشيد فى داخله ، وخرج نعش تعلوه الأزهار .

فأدركت كارين أن السيدة العجوز الطيبة قد ماتت ، فأحست انها أصبحت منبوذة من الناس أجمعين ، ملعونة من (ملاك) الرحمة .

واستمرت ترقص حتى فى الليل المظلم ، وحملها الحذاء فوق الأشواك حتى تمزقت أطرافها وسالت منها الدماء ، وذهبت ترقص حتى وصلت الى منزل منعزل صغير ، وكانت تعلم أنه مسكن الجلاد ، فنقرت بأصابعها فوق الزجاج ، وهى تصيح : « اخرج الى ! اخرج الى ! فاننى لاأستطيع الدخول ، اننى أرقص .

فأجابها الجلاد : انك لاتعرفين من أنا ، انى أقطع رءوس الأشرار وفأسى حادة جدا وقاطعة .

قالت كارين : لاتقطع رأسى ! لانى حينئذ لاأستطيع العيش والتكفير عن خطيئتى ، بل اقطع قدمى وفيهما الحذاء الأحمر .

واعترفت له بكل خطيئتها ، فقطع الجلاد قدميها وفيهما الحذاء الأحمر ، وحتى بعد هذا ظل الحذاء يرقص بالقدمين الصغيرتين فوق الحقول حتى وصل الى وسط الغابات .

وصنع لها الجلاد قدمين من الخشب وقطع بعض الأغصان لتكون عكازين لها ، وقبلت اليد التى أمسكت بالفأس ، ومضت فى طريقها فوق الأرض الوعرة .

وقالت كارين لنفسها : الآن قد عانيت مافيه الكفاية بسبب الحذاء الأحمر ، لسوف أذهب الى الكنيسة ليرانى الناس مرة أخرى .

ومضت الى باب الكنيسة بأسرع ماتستطيع ، لكنها حين اقتربت منه وجدت الحذاء الاحمر يرقص أمامها ، فانزعجت وولت هاربة .

وعانت طيلة هذا الاسبوع ألما بليغا ، وبكت بكاء مرا ، فلما كان يوم الاحد قالت لنفسها : أظن أننى عانيت هذه المرة كثيرا ، ولعلى لاأقل طيبة عن الكثيرين ممن يقفون رافعى الرأس فى الكنيسة .

واستجمعت شجاعتها ومضت الى الكنيسة ، لكنها لم تكد تخطو فوق عتبة المقبرة حتى رأت الحذاء الأحمر يرقص ثانية أمامها ، فعادت مذعورة وأخذت تندب حظها وتندم على خطئها أكثر من أى وقت مضى .

فذهبت عندئذ الى بيت راعى الكنيسة ، ورجته أن يكلفها عملا

ما ، ووعدته أن تعمل فيه بهمة ، وأن تفعل كل ماتستطيع . قالت : ولست راغبة في أجر ، بل كل مااطلبه سقف يؤويني ، ومسكن مع أناس طيبين ، وأشفقت عليها زوج الراعي ، وأدخلتها في خدمتها .. فحفظت كارين جميلها وجدت في عملها .

وكانت تجلس كل مساء صامتة تصغي الى الراعي ، وهو يقرأ في الكتاب المقدس بصوت عال ، وأحبها الأطفـــال جميعا لكنها حين كانت تسمعهم يتحدثون عن الثياب والأناقة ، وعن جمالهم الذى يشبه جمال الملكة كانت تهز رأسها في أسى وحسرة .

وجاء يوم الأحد من جـــديد ، وذهب آل بيت الراعي جميعـــا الى الكنيسة ، وسألوها : أليست ذاهبة أيضا ؟ فتنهـــدت ونظرت والدموع في عينيها الى عكازيها .

وعنـــدما انصرف الجميع ذهبت الى غرفتهـــا الصغيرة ـ وكانت لاتتسع الا لسرير ومقعد فقط ـ وجلست هناك ، وبينمـــا هي كذلك حملت الريح الى غرفتها في الكنيسة أنغام الناى ، فرفعت رأسها الى السماء ودعت الله ودموعها تجرى على خديها قائلة : الهى ساعدنى .

ثم سطع نور الشمس سطوعا يخطف الأبصار، فرأت عجبا ؟ رأت أمامها (الملاك) واقفا بثوبه الابيض وكان لا يختلف عن (الملاك) الذى رأته في تلك الليلة الكئيبة ، لكن يده لم تكن تهز سيفا كالذى كانت تهزه في المرة السابقة ، بل كانت تحمل غصنا جميلا أخضر مليئا بالورد .

ولمس (الملاك) السقف بهذا الغصن ، فارتفع نحو السماء وظهر في البقعة التى لمسها نجم ذهبى لامع ، ولمس الجدران فاتسعت الغرفة ورأت كارين الناى وسمعت أصواتا كثيرة تنشد .

لقد أتت الكنيسة الى الفتاة المسكينة في غرفتها الضيقة ، أو لعل الغرفة قد اتسعت حتى أصبحت هي الكنيسة ، وجلست الفتاة مع بقية آل بيت الراعي . وعندما انتهت الأناشيد نظروا اليها وهزوا رءوسهم قائلين : لقد أحسنت صنعا بقدومك ياكارين .

فقالت : هذه مغفرة من الله .

وعزف الناى مرة أخرى ، وامتزجت أصوات الاطفال بأنغـــامه امتزاجا حلوا عذبا ، وتدفقت أشعة الشمس الساطعة الدافئة من النوافذ على مقعد كارين ، وامتلأ قلبها نورا وغبطة وسلاما ، وطارت روحها على شعاع من أشـــعة الشمس الى الله في السماء حيث لم تكن في انتظارها نظرة عتاب واحدة ، أو مجرد كلمة عن الحذاء الاحمر .

***

الشريحة الثانية

.. وذهب في عام ١٨٤٥ الى برلين ، حيث كانت « جيني لنـــد » تغني في دارها الملكية للاوبرا ، وهو يرجـو أن يقضي معها عيـــد راس السنة الميلادية ، ولكنها لم ترســـل اليه تستدعيه برغم علمها بوصوله . فجلس وحيدا .. يائسا في غرفته بالفندق . وكتب في مذكراته يقول : انني لاأدري ماذا يدور بذهنها ، انها لا تكاد تشعر بي برغـم أني جئت الى برلين من أجلها .. اننا الآن في ليلة عيد الميلاد .. فما أسعد البيت الذي يجلس فيه الزوج بجـانب المدفاة ، وشجرة عيد الميلاد مزينة .. والزوجة واقفة وبين ذراعيها أصغر أبنائها .. انه يمد ذراعيه الى الأضواء وان بقية الأولاد فرحون متهللون .

ولكن .. لم يكن ثمة فائدة من الاستغراق في الاوهام والأحلام ، فعندما أرسلت أخيرا تستدعيه وتقضي معه ليلة عيد الميـــلاد ، أدرك أنه ليس ثمة فائدة ، فقد كانت تلك أول مرة ينفردان فيها معا ، اذ لم تكن وصيفة « جيني » معها .. فاضاءت شـــجرة عيد الميلاد لأندرسن وملأت بغنائها العـــذب وصـــوتها الصـــافي روحه بالسعادة والسلام ، ولكنها في الوقت نفســـه أبانت له بوضـــوح انها لا تستطيع ان تمنحه اكثر من هذا .

***

الكـــروان

امبراطور الصين ـ كما تعلمون جيدا ـ صيني ، وكل المحيطين به صينيون أيضا ، وقد وقع ما ساقصه عليكم منذ سنوات عدة ٠

كان قصر الامبراطور أعظم قصر في الدنيا ، وكان كله مصنوعا من الخزف البديع الغالى الثمن ، ولكنه كان في الوقت نفسه هشا ٠٠ بمجرد لمسه يتحطم من أوله الى آخره ٠ وكان فى القصر مجموعة من الأزهار رائعة المنظر ، وقد ركب في أجمل واحدة من تلك الازهار ثلاثة أجراس صغيرة من الفضة ، وكان كل شخص يمر عليها ويسمع الرنين يضطر الى الوقوف والالتفات الى جمالها ٠

حقا لقد كان كل شيء فى حديقة الامبراطور مرتبا ترتيبا حسنا وكانت الحديقة واسعة جدا لدرجة أن البستانى نفسه لم يكن يعـــرف آخرها ٠ ٠ وكانت فى نهاية الحديقة غابة جميلة ذات أشجار باسـقة تشرف على بحر أزرق عميق ، تجرى فيـــه السفن الى جوار الأغصان ٠ وكان يقيم بين الأغصان كروان يغرد تغريدا حلوا يعجب حتى صياد السمك الفقير الذى كان برغم شغله الكثير يقف ساكنا ، ويصغى اليه ، وحين يأتى بالليل ليلقى بشباكه ، كان يقول : ماأعذب هذا الصوت ! ٠٠ ثم يشغله عمله فينسى الطائر ، حتى اذا عاد الصياد فى الليلة التالية وعاد الكروان الى التغريد كرر قوله : ماأعذب هذا الصوت ! ٠

وكان السياح يأتون الى مدينة الامبراطور من جميع أنحاء الدنيـــا فيعجبون بالمدينة وبالقصر والحديقة ، ولكنهم اذا سمعوا الكروان قالوا جميعا : هذا أحسن شيء هنا ٠ وكانوا اذا عادوا الى أوطانهم لايكفون عن الحديث عن الكروان ، ويؤلف العلماء منهم الكتب عن المدينة والقصر والحديقة ، ولا ينسون الكتابة عن الكروان ، فقد كان في نظرهم يفوق كل شيء آخر ٠ أما الشعراء فكانوا يكتبون أجمـــل القصائد وأروعها عن الكروان ٠ وكانت هذه الكتب تطوف حول العالم ٠ فوصل أحدها أخيرا فى يد الامبراطور ، وكان جالسا فوق كرسيه الذهبى ، فأخذ يقرأ فى الكتاب ويقرأ ، ويهز رأسه من حين الى آخر ، فقد أعجبه وصف الكتاب البديع للمدينة والقصر والحديقة ٠ لكن الكروان هو خير ماهنالك جميعا هذا ماقرأه الملك بعد ذلك في الكتاب ، فأخذ يسأل : وما هذا الكروان ؟ أى كروان هذا ؟ اننى لاأعرف كروانا هنا ! أيمكن أن يكون هناك طائر كهذا فى امبراطوريتى ٠٠ بل فى حديقتى دون أن أسمع بوجوده ؟٠٠ الحق أننا نتعلم الكثير من الكتب ٠

ونادى ياوره على الفور ، وكان رجلا مهيبا عظيم القدر لايجرؤأحد غيره على مخاطبة الامبراطور .

قال له الامبراطور : يقال ان هنا طائرا عجيبا جدا يسمى الكروان ويقال أن تغريده أحلى من أى شيء آخر في مملكتى ، فلماذا لم يحدثنى أحد عنه مطلقا ؟ .

فأجاب الياور : لم أسمع يا سيدى بهذا الطائر قط من قبل ، ولم يأت به أحد قط الى البلاط .

قال الامبراطور : أريد أن يأتي ويغرد أمامى هنا المساء ، هل من المعقول أن تعلم الدنيا كلها ماعندى ، وأنا لاأعلمه . ؟

فرد الياور : اننى لم أسمع به ياسيدى ، ولكننى سأبحث عنه حتى أهتدى اليه .

ولكن أين يجده ؟ فقد أخذ الياور يبحث عنه فى كل مكان ، كان يصعد سلما ويهبط آخر ، ويخرج من ردهة الى ممر دون أن يعثر للكروان على أثر . وعاد الى الامبراطور وقال له : لأبد أن يكون موضوع هذا الطائر من خيال الكتاب والشعراء ، وأرجو ألا يصدق جلالة الامبراطور كل ما يكتب فى الكتب ، لأن ما بها مجرد أوهام .

قال الامبراطور : ولكن الكتاب الذى قرأت فيه عن الكروان قد بعث به الى امبراطور اليابان العظيم ، ذو الجاه والسلطان ، ولا يمكن أن يكون مابه كذب وأوهام . أريد أن أسمع البلبل ، ويجب أن يكون هنا فى مساء اليوم ، واذا لم يأت فسأصدر أوامرى بجلد رجال الحاشية جميعا بعد العشاء .

فانصرف الياور من أمام الامبراطور وقد تملكته الحيرة وأخذ يذرع القاعات والردهات ونصف رجال الحاشية يجرون وراءه ، فليس منهم من يريد أن يجلد ، وكانوا يسألون كل من يقابلونه عن هذا الكروان العجيب الذى تحدثت الدنيا عنه دون أن يعلم أهل البلاط من أمره شيئا .

وأخيرا عثروا على فتاة صغيرة مسكينة فى المطبخ فقالت لهم : أجل الكروان ! اننى أعرفه معرفة جيدة . فما أحلى غناءه العذب ! اننى فى كل مساء أحمل الطعام المتبقى من المائدة الى أمى المريضة المسكينة التى تقيم على ساحل البحر ، وفى أثناء عودتى أمكث فى الغابة قليلا وأستريح ، فأسمع الكروان يغرد تغريدا يجعل الدمع ينساب غزيرا من عينى .

فقال الياور : اسمعى أيتها الفتاة الصغيرة .. اننى سأحصل لك على وظيفة مضمونة فى المطبخ ، وبهذا سوف ترين الامبراطور وهو يتعشى ، فقط عليك أن تخبرينى بمكان الكروان وتقودينى اليه . انهم ينتظرونه فى البلاط هذا المساء .



.. ففرحت الطفلة بما قاله الياور واصطحبته الى الغابة وكان معهما نصف الحاشية ..

ففرحت الطفلة بما قاله الياور ، واصطحبته الى الغابة حيث اعتاد الكروان أن يغنى ، وكان معهما نصف الحاشية . وبينما الجميع فى طريقهم أخذت بقرة تخور ، فقال غلمان البلاط : الآن قد وقعنا عليه ماأعجب هذا الصوت الذى يظهر من هذا الحيوان الصغير ! حقا لقد سمعناه من قبل فى مكان ما .

فقالت خادم المطبخ الصغيرة : آن ماتسمعونه ليس الا خوار بقرة ولا نزال بعيدين عن الكروان .

ثم سمعوا نقيق الضفادع فى البركة ، فقال واعظ البلاط : هذا مدهش ! فالآن أسمعه ، ان له صوتا كرنين الأجراس الصغيرة .

فقالت خادم المطبخ الصغيرة : كلا ان هذه ضفادع أما الكروان فاننا سنسمعه قريبا .

وأخذ الكروان يغنى فصاحت البنت الصغيرة : هاهوذا ! انصتوا انه واقف على أحد الأغصان هناك .

وأشارت الى طائر أشهب صغير بين الأغصان .

فقال الياور : هل يمكن هذا ؟ ماكنت أظن ذلك . فما أبسط منظره !

ونادت خادم المطبخ : أيها الكروان الصغير ! ان امبراطورنا الكريم يريد أن تغنى له قليلا .

فأجاب الكروان : بكل سرور ، وغرد تغريدا سحر الجميع .

فقال الياور: ان لصوته رنينا كرنين أجراس مصنوعة من الزجاج انظروا الى حنجرته الصغيرة كيف تتحرك ! أليس غريبا أننا لم نسمع شيئا كهذا من قبل ؟

وسأل الكروان : هل يريدني الامبراطور أن اغني مرة أخرى ؟. فقد كان يظن أن الامبراطور من بين الواقفين .

فقال الياور : يا أروع كروان في الوجود ! ان لي الشرف بأن أدعوك الى حفلة في البلاط تقام هذا المساء، ليفتتن فيها مولاي الامبراطور بصوتك العذب .

قال الكروان : ان صوتي يحلو وقعه بين الأشجار الخضراء ولكنه سار معهم في النهاية عن طيب خاطر، وخاصة حينما عرف أن الامبراطور مشتاق الى سماع صوته .

وكان القصر قد لبس أزهى حلة ، فكانت حيطانه وأرضه – وكلها مصنوعة من الخزف – تلمع في ضوء ألف مصباح من الذهب الخالص . وكانت أجمل الازهار والاجراس ذات الرنين الحلو موضوعه في الممرات . وفي وسط القاعة الكبرى ، حيث جلس الامبراطور أقيم مقعد صغير فاخر في مكان مرتفع ليجلس فوقه الكروان ، وكانت الحاشية كلها حاضرة وأذن لخادم المطبخ الصغيرة أن تقف خلف الباب ، فقد كان ابتهاجه به عظيما ، فأمر بوضع حلية ذهبية حول عنقه ، ولكن بر الياور بوعده لها ومنحت لقب «فتاة المطبخ» وكان الجميع يرتدون أفخر الثياب ، واتجهت كل الانظار نحو الطائر الصغير الذي أشار اليه الامبراطور ليبدأ الغناء .

وغنى الكروان غناء انسابت له الدموع من عيني الامبراطورة وبللت خديها ، وتأثرت قلوب جميع الحاضرين ، أما الامبراطور فقد الكروان شكر الامبراطور وقال : انه نال أكبر الجزاء ، قال : لقد رأيت الدموع في عيني مولاي الامبراطور ، وهذا خير جزاء أناله . لأن دموع الامبراطور دموع غالية ، ثم عاد الى الغناء بصوته العذب .

حقا لقد كان نجاح الكروان عظيما ، وقد تقرر أن يبقى في البلاط وأن يكون له قفص خاص به ، كما تقررت له اجازة يطير فيها خارج قفصه مرتين بالنهار ومرة بالليل . وقام على خدمته اثنا عشر خادما ، يمسكون بشريط حريري مربوط حول قدميه ، فكانت قبضاتهم محكمة على هذا الشريط . ولكن كل هذا لم يسعد الكروان بأية حال .

وأخذت المدينة تتحدث عن الطائر العجيب ، وأخذ الآباء يطلقون على أبنائهم الجدد اسم «كروان» حتى لقد سمي بهذا الاسم أحد عشر طفلا في المدينة ، ولكن لم يكن لأحد من هؤلاء الأطفال مثل أنغام الطائر العذبة الشجية .

وفي ذات يوم وصلت باسم الامبراطور لفافة كبيرة مكتوب عليها «كروان» فقال الامبراطور : هذا كتاب جديد آخر عن طائرنا الشهير لكنه لم يكن كتابا ، بل كان آلة صغيرة في صندوق على شكل كروان

صناعي يشبه الكروان الحي الى حد كبير ، ولكنه كان مرصعا كله بالماس والياقوت الأحمر والأزرق فاذا ادير لولب هذا الكروان الآلي امكنه أن يغني لحنا واحدا من الحان الكروان الحي ، وكان ذيله البراق يعلو في أثناء ذلك ويهبط .

وقال الجميع : هذا مدهش ! الآن يجب أن يغنيا معا ، وسيكون لنا منهما أغنية ينشدها اثنان ، وغنى الطائران معا ، ولكن الكروان الحقيقي كان يغني بأسلوبه الخاص ، أما الكروان الآلي فكان يخرج نغماته اذا دارت العجلات بداخله ، فرأى البعض أن يغني الكروان الصناعي وحده ، فغنى ونجح مثل الكروان الحقيقي ، هذا بالاضافة الى أنه كان أجمل منه منظرا ، وأن ريشه كان يتلألأ كالجواهر .

وقد غنى أغنية وكررها ثلاثا وثلاثين مرة دون أن يصيبه التعب وتمنى الجميع أن يسمعوه مرة أخرى . ولكن الامبراطور اشتاق الى سماع الكروان الحقيقي ، وعندما ذهبوا لاحضاره لم يجدوه ، ولم يكن أحد قد لاحظ أنه طار من النافذة المفتوحة الى غابته الخضراء ، فحنق عليه الامبراطور وأمر بنفيه من البلاد .

وحل الطائر الصناعي محله على وسادة من حرير تلاصق فراش الامبراطور واحيط بكل الهدايا التي تلقاها من ذهب وحجارة كريمة . وانعم عليه بلقب : مغني الفخامة الامبراطورية السامية ، واستمرت هذه الحال سنة كاملة حفظ فيها الامبراطور والبلاط وأهل الصين جميعا كل مقطع من أغنية الكروان الصناعي . وكان هذا هو السبب في أنهم استمتعوا بالأغنية الى حد كبير، وأصبحوا قادرين على مصاحبته في الغناء، وصار الاولاد في الشوارع يرددون الأغنية. حتى الامبراطور نفسه لم يكن يكف عن ترديدها .

وذات مساء حين كان الطائر في أوج غنائه ، والامبراطور يصغي اليه في استمتاع وهو مضطجع في فراشه ، سمع فجأة صوت في داخل الطائر ، ثم تحرك شيء في بطنه وطارت العجلات هنا وهناك وانقطعت الموسيقا . فقفز الامبراطور من سريره بسرعة وارسل يطلب كبير الاطباء .. ولكن ماذا يستطيعه كبير الاطباء ؟ ثم استدعى صانع الساعات الذي بذل جهدا كبيرا في اصلاح الطائر . وقال صانع الساعات بعد أن انتهى من عمله : لكن يجب اعفاء الطائر من الغناء الا مرة واحدة في العام لان « التروس» قد تآكلت تقريبا ، ومن المستحيل تجديدها لتعود الموسيقا على ماكانت عليه من الجمال والاتقان .

ومضت على هذا الحادث خمس سنوات مرض فيها الامبراطور واشرف على الموت . وحزن شعبه عليه حزنا شديدا ، وأخذ الناس يفدون على القصر لتحية امبراطورهم تحية الوداع . وكان الامبراطور راقدا فوق سريره الفاخر وقد تصلب جسده واصفر وجهه ، وكانت ستائر القطيفة الطويلة مسدلة على السرير وقد تدلت أهدابها الذهبية الثقيلة . وكانت فوق السرير نافذة مفتوحة يرسل منها القمر أشعته على الامبراطور والعصفور الصناعي .



... وفتح الامبراطور عينيه فرأى ملك الموت الى جانبه وقد وضع على رأسه التاج الامبراطورى ..

وكان الامبراطور المسكين يكاد يختنق ، فقد خيل اليه أن شيئا ثقيلا يطبق على صدره ، وفتح عينيه فرأى ملك الموت الى جانبه وقد وضع على رأسه تاج الامبراطور وأمسك باحدى يديه «السيف المقدس الذهبى» ، وبالاخرى العلم الامبراطورى الفخم . وشاهد من فتحات الستائر السميكة رءوسا غريبة تتطلع اليه ، بعضها يبدو قبيحا جدا ، والبعض الآخر يبدو لطيفـــا باسما . فعرف الامبراطور أن الرءوس القبيحة العابسة تمثل سيئاته التى ارتكبها فى حياته ، وأن الرءوس

الراضيه الباســـمة تمثـــل حسناته ، وقد جاءت كلها مع موكب الموت الذى أصبح يحيط به ، وخيل اليه أنه يسمع سيئاته تصرخ فيه مؤنبة : «الا تذكرني ؟ ألم تفعل كذا وكذا ؟» ففزع الامبراطور مما رأى وسمع ، واستبد به الهلع والرعب فأخذ يصيح : « ادركونى بالموسيقا ، دقوا على الطبل الصينى الكبير ولا تتركونى أسمع مايقولون ! غن لى أيها الطائر الصناعي العزيز ! غن لى أرجوك ! انني وهبت لك الذهب والأحجـــار الكريمة ، وأعطيتك كل ما هو غال وثمين ٠٠ أرجوك أن تغنى لى !» ولكن الطائر ظل صامتا ٠ فلم يكن هناك أحد يدير لولبه ولم يكن الامبراطور يقوى على ذلك ، ولذا لم يستطع الطائر الغناء ٠ ومضى الموت يحملق فى وجه الامبراطور بعينيه الكبيرتين القبيحتين ٠ وأطبق الصمت على الحجرة وكان صمتا مخيفا مرعبا ٠

وفجأة سمع الامبراطور لحنا عذبا صادرا من النافذة ٠ فقد كان الكروان الحى الصغير واقفا على غصن بالخارج، وقد جاء يغرد للامبراطور ويدخل على قلبه العزاء والأمل ، بعد أن علم بمرضه الشديد٠ وكان كلما استمر فى الغناء أخذت الاشباح التى تحيط بسرير الامبراطور تختفى الواحدة تلو الأخرى ٠ وسرى الدم فى عروق الامبراطور ، ودبت فيه الحيـاة من جديد ٠ أما (ملاك) الموت فقد أخذ يصغى فى رضا وهو يقول : « استمر فى غنائك أيها الكروان الصغير ، اسـتمر فى غنائك !» فقال الكروان : « وهل تمنحنى السيف المقوس الذهبى ، وتعطينى العـلم العظيم وتاج الامبراطور ؟ » ٠

فرد (ملاك) الموت : «هذه الكنوز جميعها لك ثمنا للأغنية» فاستمر الكروان فى الغناء ٠ أخذ يغني عن المقبرة الهـــادئة حيث يزهر الورد وتنتشر رائحته الزكية ، وحيث تبلل الدموع المســـكوبة على الراحلين العشب الطرى ٠ فاهتز (ملاك) الموت شوقا الى حـديقته ، وانطلق من النافذة طيف أبيض بارد ٠

حينئذ قال الامبراطور: «شكرا شكرا ، أيها الطائر السماوى الصغير انى أعرفك جيدا ! لقد طردتك من مملكتى فطردت أنت بغنائك هـذه الوجوه الكئيبة عن سريرى ، وأبعدت الموت عن قلبى ، فكيف أكافئك ؟»

فقال الكروان : « لقد نلت جزائى حين شهدت الدمـع يترقرق فى عينيك ، كما شهدته عندما غنيتك لاول مرة ، اننى لن أنسى تلك الدموع أبدا فهى كالجواهر التى تملأ قلب المغنى المجهول بالبهجة والسعادة ٠ فلتنم الآن يامولاى ، وانهض بعد ذلك نشيطا معافى ، ولسوف أغنى لك حتى تستسلم الى النوم الهنىء » ٠

وأخذ الكروان يغنى حتى راح الامبراطور فى ســـبات عميق لذيذ واستيقظ فى صباح اليوم التالى سليما معافى ٠ ولم يكن أحد من خدمه قد جاء لانهم جميعا حسبوه قد مات ، لكن الكروان كان لايزال الى جواره يغنى له أعذب الألحان ٠

والتفت الامبراطور الى الكروان وقال له : « سوف تبقى دائما معى لتغنى لى كما يحلو لك ٠ ولسوف أحطم هذا الطائر الصناعى اللعين » ٠

فأجابه الكروان : لاتفعل ذلك ، فلقد بذل مافى طاقته ، واعتن به. أما أنا فلا بقاء لى فى قصرك ، دعنى وشأنى ، انى لسوف آتى كلما راق لى ذلك ، وأقف على الأغصان بجوار النافذة وأغنى لك حتى تصبح سعيدا مرتاح البال . سوف أغنى للجميع .. للبؤساء والسعداء ، سوف أغنى للخير والشر اللذين يكمنان معا فى قصرك . ان المغنى الصغير يطير الى كوخ السماك ، ومزرعة الفلاح ، الى جميع من هم بعيدون عنك وعن بلاطك . ان قلبك أحب الى من تاجك . سوف آتى وأغنى على شرط أن تعدنى بشىء واحد .

فقال الامبراطور فى لهفة : « بل بكل شىء ! »

قال الكروان : «اننى أسألك شيئا واحدا .. لا تخبر أحدا بأن لك طائرا صغيرا ينبئك بكل شىء . اذا فعلت ذلك فسيكون كل شىء على مايرام».

قال الكروان ذلك وانطلق طائرا الى الفضاء الفسيح وجاء الخدم ليروا امبراطورهم الميت ، ولكن الدهشة عقدت ألسنتهم حينما رأوه واقفا وسط الغرفة يقول لهم : « صباح الخير ! »



....وجاء الخدم ليروا امبراطورهم الميت ، ولكن الدهشه عقدت ألسنتهم حينما رأوه واقفا وسط الغرفة يقول لهم : « صباح الخير ! »

الشريحة الثالثة

« ٠٠٠ وكانت امه تنظر اليه احيانا وتقول له : انه يعيش في ترف وانه اسعد حالا منها يوم كانت في مثل سـنه ٠٠ فقد كانت ـ وهي طفلة ـ تخرج مرغمة ، وكثيرا ماغلبها الشعور بالخجل على امرها ٠٠ فتجلس طوال اليوم تحت القنطرة ، تنتحب ولا تجرؤ على العـودة الى البيت دون القليل من المال ٠٠٠ »

***

« ٠٠٠ وفي أثنـاء اقامته في بيوت الأعيـان ، لم ينسه منظر الارستقراطيين الكسالى ، الأثرياء ، الفارغين ـ لم ينسه ذلك ـ أولئـك القابعين في الجانب الآخر من البشرية : الفقراء ، البؤساء ، المعدمين ، الذين يبيتون على الطوى أياما ويحلمون بقطعة فحم تدرأ عنهم قسوة الشتاء»

بائعة الثقاب الصغيرة



البرد قارس ، والثلج يتساقط سريعا ، والليل أوشك أن يرخى سدوله على حين أن فتاة صغيرة مسكينة عارية الرأس ، حافية القدمين لاتزال تجول فى الطرقات ٠

وكانت تلبس خفين حين خـرجت من بيتها ، لكن هذين الخفين كـــانا أكبر من قدميها ــ فهما لامها ــ فانفلتا من قدميها حينما كانت تجرى مسرعة فى عـــرض الطريق لتتفادى من مــركبتين مقبلتين ٠ ومن لهفتها ضاع أحد الخفين ولم تعثر له على أثر ، واختطف الخف الآخر غـــلام صغير وانطلق يعدو به ٠

وسارت الفتاة حافية ، فاحتقنت قدماها من البرد ، وكانت تحمل حزمة صغيرة من أعواد الثقاب فى يدها ، وحزما أخرى فى ثوبها الممزق ولم تكن قد باعت فى يومها حزمة واحدة ولم يعطها أحد بنسا واحدا٠ وأخذت تجر نفسها جرا وترتعش من البرد والجوع ٠٠ مسكينة أيتها الطفلة الصغيرة٠

وكان الثلج يتساقط فــوق شعرها الاشقر الطويل المجدول فوق كتفيها فى حلقات لطيفة، ولكنها لم تكن تفكر فى جمالها أو فى البرد القارس ، فقد كانت الأنوار تنبعث فى كل نافذة ، ورائحة الاوز المشوى تنتشر من منـــازل عدة لان تلك الليلة كانت ليلة رأس السنة ٠٠ هذا ماكانت تفكر فيه ٠

وجلست الفتاة القرفصاء فى أحد الأركان ، ووضعت قدميهـــا الصغيرتين من تحتها تريد أن تدفئهما ، ولكن لم تستطع ، فقد كان البرد يتسلل الى جميع أطرافها من الثقوب التى تمـــلأ ثوبها ، ولم تجرؤ على

العودة الى البيت ، فانها لم تبع ثقابا ، ولم تحظ ببنس واحد ، وقد يضربها أبوها لو عادت . هذا الى أن مسكنها ربما لايقل بردا عن الطريق لانه كان فى غرفة السطح ، ومع أن الشقوق الكثيرة المنتشرة فى سقفه قد سد أكبرها بالقش والخرق ، فان الريح والثلج يجدان طريقهمـــا بسهولة الى الداخل ، كانهما يسعيان الى الدفء أيضا .

كانت يداها تبـــدوان كما لو أنهما لا حياة فيهما ، وقد يدفئهما عود واحد من الثقاب لو تجرأت فأشعلته وسحبت عـودا وقدحتـــه فى الجدار .. ياالهى ! ياله من لهيب لامع دافىء ! ووضعت يديها فوق اللهب الصغير ، فبدا لها شمعة سحرية ، وخيل اليها أنها جالسة بجوار موقد حديدى كبير محلى بزخرف من النحاس ، وبداخله نار تئز وتتأجج .. ومدت الطفلة قدميها لتدفئهما ، ولكن واأسفاه ! لقد انطفأت الشـــعلة الواهنة بعد لحظة ، واختفى الموقد الذى كان يملأ عالمها ، وعادت الى البرد والحرمان ، وعود محترق بين أصابعها الدقيقة .

وقدحت عودا آخر فى الجـــدار ، فأضاء والتهب ، وكان الضـوء المنبعث من العود يكشف عن الجدار ، فاستطاعت الفتـــاة أن ترى مايجرى فى الحجرة وراءه . رأت مائدة مغطاة بقماش ناصع البيـاض وفوقها بعض صحاف من الخزف اللامع .

وكانت أوزة مشوية ، ومحشوة بالتفـاح والبرقوق المجفف فى طرف من أطراف المائدة ، يتصاعد منها الدخان ، وكان أجمل من هـذا وأمتع للعين أن الاوزة قفزت من الطبق ، والسكين والشوكة لاتزالان فى صدرها ، وأخذت تمشى فوق الأرض متجهة الى الفتاة المسكينة .

وانطفأ العود الثانى ، وانطفأت من ثم كل الخيالات التى عاشت فيها لبضع لحظات ، واذا بها تجد نفسها قابعة الى جوار الجدار السميك البارد . وأشعلت عود ثقاب ثالثا ، واندلع اللهب مرة أخرى فاذا بهـا تجلس تحت شجرة من شجر عيد الميلاد من أجمل مارأت فى حياتها ، بل انها لأكبر وأروع من التى شهدتها خلال الزجاج فى بيت التـاجر الغنى ليلة عيد الميلاد الماضى . وكانت مئات من الشموع تضىء الأغصان الخضراء ، وعرائس ملونة صغيرة كالتى شهدتها فى معارض الحوانيت تطل عليها من الشجرة .

فمدت الفتاة يديها نحوها فرحة ، ولكنها لم تكد تفعل حتى انطفأ عود الثقاب ، ومع ذلك فقد كانت شموع عيد الميلاد لاتزال تشـــتعل ويرتفع لهيبها ، وقد شهدتها تتلألأ كنجوم السماء ، ورأت احداها تسقط وكان الضوء المنبعث من ورائه يشبه ذنبا ناريا طويلا .

وقالت الفتاة الصغيرة فى صـــوت ضعيف : « الآن يحتضر بعض الناس » وكانت جدتها العجوز قد أخبرتها بأنه كلما سقط نجم صعدت روح الى بارئها . وجدتها العجوز كانت هى الشخص الوحيد الذى حنا عليها من بين الناس أجمعين . وهى الآن فى جنات الخلد . وحكت الفتاة بالجدار عودا آخر من الثقاب فاشتعل ، وظهرت للفتاة الجـدة العزيزة نفسها وسط النور المنبعث من العود ، وهى على ماعرفت به من لطف

واينباس ، لكنها كانت هذه المرة مشرقة سعيدة أكثر مما بدت في حياتها الاولى ·

وصاحت الطفلة الصغيرة : أواه ياجدتي ! خذيني معك ، فاني أعلم أنك ستتركينني بمجرد ماينطفيء العود · ستختفين كما اختفت نار الموقد الدافئة ، ووليمة رأس السنة الفاخرة ، وتذهبين كما ذهبت شجرة عيد الميلاد الجميلة ، وبسرعة اشعلت كل الأعواد الباقية في الحزمة حتى لاتختفي جدتها ·

اشتعلت أعواد الثقاب ، فكان لها وهج عظيم لا يفوقه وضح النهار وبدت الجدة العجوز الطيبة كما لم تبد من قبل ، أطول قامة وأبهى منظراً ، وأجل مظهرا · واحتضنت الفتاة الصغيرة وطارتا معا ·· وكانتا تطيران في هالة من الغبطة والجلال ، وارتفعت بها ثم ارتفعت ، حتى بلغتا المكان الذى لايعرف فيه البرد ولا الجوع ولا الألم ·· لقد دخلتا الفردوس ·

وفي الصباح البارد ،وجدت الفتاة الصغيرة المسكينه قابعة في ركن من الجدار ، متوهجة الخدين باسمة الشفتين، متجمدة في قبضة الموت ، في آخر ليلة من العام الراحل ·وكانت شمس العام الجديد تشرق على الطفلة التي فارقت الحياة ، وقد جلست هناك بلا حراك ، وفي حجرها أعواد الثقاب ، وقد نفدت منه حزمة كاملة ·

وقال الناس : « لقد كانت تريد أن تستدفيء تلك المسكينة ، لكن أحدا لم يعلم بالرؤى الحلوة التي رأتها ، ولا بالاحتفال المجيد الذى حيت به الفتاة وجدتها ليلة رأس السنة ! ·

الشريحة الرابعة

ان قصة غرامه بريبورج كانت تتسم بطابع المرارة والألم ، فما الذى جعلها تتنكر له ؟ وهل تنكرت له برضائهـــا بالرغم عنها ؟ لقد كان هو فى (فابورج) ـ بلدها ـ شاعرا وكاتبا كبيرا من كوبنهاجن ··· ولا شك أنه كان فى نظرها يوم ذاك شخصية ضخمة أما فى العاصمة ـ كوبنهاجن ـ فقد سمعت بأذنيها كيف يسخر الناس من « شاعرها » وكيف يسميه بعضهم « عمود النور » و « أبو مركوب » ولعلها أدركت انها غير واثقة من حبها له ·· أو قد يكون الامر على العـــكس أى أن هانز أندرسن ، برغم تأكيداته واحتجاجاته ، هو الذى تنكر لها بعد أن خمدت ـ سرا ـ عاطفته نحوها ! لقد كانت (ريبورج) في (فابورج) ، بين أهلهـا ومظـــاهر ثرائها ، « انسانة » فى نظره رائعة ·· أما فى كوبنهاجن فلم تكن غير فتاة قروية بسيطة :

ان قصة « الكرة والخذروف » ترجح الرأى الأول •

***

الكرة والخذروف

كان خذروف وكرة يقيمان معا بين بقية اللعب فى أحد الادراج• فقال الخذروف (النحلة) للكرة : « لم لا نصبح عروسين ما دمنا نجتمع معا كثيرا ؟ » •

ولكن الكرة ـ وهى مصنوعة من جلد الماعز الرقيق ـ كانت تتصور نفسها آنسة عصرية ، فلم تصغ الى هذا الكلام • وفى اليوم التالى جاء الغلام صاحب هذه اللعب الى الدرج فدهن الخذروف باللونين الاحمر والاصفر ، ودق وسطه مسمارا نحاسيا ، وبذلك أصبح له منظر بهيج حينما يدور •

وقال الخذروف للكرة : « انظرى الى ••• ما رأيك الآن ؟ ألا أصلح لك زوجا ؟ ان كل واحد منا يلائم الآخر ، أنت تقفزين وأنا أدور ، ولن يكون هناك أسعد منا لو تزوجنا • »

فقالت الكرة : « أتعتقد ذلك ؟ لعلك لا تعلم ان أبى وأمى كانا خفين من جلد الماعز ، وان فى جسمى قطعا من الفلين • »

قال الخذروف : « ولكنى مصنوع من خشب (الموجنا) صنعنى العمدة بيديه ، وكان يملك مخرطة ، فأخذ يسلى نفسه بخرطى •• »

قالت الكرة : « وهل أستطيع أن أصدقك فى هذا ؟ »

فأجاب الخذروف : « أدعو الله ألا ألهب بالسوط مرة أخرى اذا كنت أكذب • »

فقالت الكرة : « انك تقول صدقا ، ولكنى لست حرة ، فانى فى حكم المخطوبة لعصفور صغير ، فقد كنت كلماارتفعت فى الهواء أطل برأسه من عشه وقال : « أتتزوجيننى ؟ » وقد وافقت بينى وبين نفسى ، وهذا يقرب ان يكون خطبة ، ولكنى أعدك بشىء واحد ••• وهو أنى لن أنساك أبدا •• »

قال الخذروف : « ان هذا سوف يفيدنى فائدة كبيرة » وسكت عن هذا الموضوع فلم يذكره مرة أخرى •

وفى اليوم التالى أخذت الكرة من الدرج ، ورآها الخذروف ترتفع فى الهواء كالطير ، وأخذت ترتفع حتى غابت عن الانظار ؛ ثم عادت الى الارض ، لكنها كانت كلما مست الارض قفزت ثانية الى أعلى مما كانت•• وقد يكون الحب (بضم الحاء) أو الفلين الذى فى جوفها هو الذى يفعل ذلك • وفى المرة التاسعة لم تعد ، فبحث عنها الغلام فى كل مكان ، ولكنه لم يعثر لها على أثر •

فتنهد الخـذروف وقال : « انى أعلم أين هى ••• انهـا فى عش العصفور تحتفل بعرسها • » وكلما ازداد الخذروف تفكيرا فى هذا ازدادت الكرة ملاحة فى عينيه ، وكلما أحس أنها لن تصبح زوجته ازداد هياما بها، لقد فضلت عليه غيره ؛ وهو لن ينسى ذلك أبدا • وأخذ الخـذروف يدور ويدوى لكنه لم يكف عن التفكير فى الكرة العزيزة التى اخذت تزداد فى عينيه رقة وجمالا •• ومرت السنوات ولكن حبه لم يهدأ أو ينطفىء ؟•

وكان الشباب قد ولى عن الخذروف وتقدم به العمر ، ولـكنه طلى ذات يوم بالذهب فلم يبد من قبل أجمل مما بدا فى ذلك اليوم ، وهو الآن خذروف مذهب يدور فى شجاعة عظيمة ويدوى طوال الوقت • لقـد كان هذا شيئا عظيما ! لكنه وثب مرة الى أعلى مما ينبغى واختفى عن الأنظار ، وبحثوا عنه فى كل مكان فلم يجدوه على الاطلاق •

فأين ذهب يا ترى ؟ لقد قفز الى برميل حافل بكل أنواع القاذورات، بين عمدان الكرنب والقمامة والتراب ••

وقال الخذروف : « واحسرتاه ! أيكون هنامرقدى ؟ ان لونيالذهبى سوف يفسد عما قريب • انظروا مع أى نوع من القاذورات سقطت » •• ونظر الى عود كرنب ملقى على مقربة منه يتملكه الخوف ، ثم الى شيءغريب مستدير يشبه التفاحة ، لكنه لم يكن تفاحه بل كان كرة قديمة بقيت فى هذا المكان عدة أعوام وتشربت خللها الماء •

وقالت الكرة : « شكرا لله •• لقد رزقت أخيرا رفيقا ذا كفاية يجوز لى ان أخاطبه » • وحدقت فى الخذروف المذهب ، ثم قالت : « لقد صنعت من جلد الماعز الحقيقى ، وحاكتنى يدا آنسه صغيرة ، وفى جسمى فلين ، ومع ذلك فلن يلتفت الى أحد بعد الان • لقد كنت وشـيكة الزواج من العصفور حين سقطت فى هذا المكان البشـع ، وبقيت هنا خمس سنوات وأصبحت الآن متشربة بالماء العفن • فانظروا أى بؤس بعد هذا ؟ »

لكن الخذروف لم ينطق ، فقد كان يفكر فى رفيقته التى لبث يندبها هذا الزمان الطويل ، وكلما أخذت صاحبته تقص روايتهـا أيقن أنها هى بعينها •

وأتت الخادم عندئذ تريد أن تقلب البرميل لكنها صاحت : «مرحى ! ها هو ذا الخذروف المذهب ! »

وأعيد الخذروف الى قاعة اللعب ، واستعمل من جديد ونال الاعجاب كسابق عهده ، لكن شيئا لم يسمع عن الكرة ، ولم يتحدث الخذروفحتى عن حبه السابق لها ، لأن شعوره نحـوها كان قد تبدد ، وكيف لا يكون الحال كذلك وقد مكثت فى البرميل القذر خمس سـنوات كاملة وتغيرت كثيرا حتى ما كاد يعرفها حينما لقيها فى البرميل بين النفايات •••

الفصــل الرابع

الشـاعر الفيلسوف

١ ـ نفسه الشاعرة

٢ ـ زهرتان من روضة شعره

٣ ـ قبس من فلسفته

الشاعر الفيلسوف

١ – نفسه الشاعرة :

من الأقاصيص الأربع التى تضمنها الفصل السابق – على سبيل المثال – نرى ان شخصية أندرسن وحياته الخاصة قد أسهمتا الى حد كبير فى خلود أعماله ، ويمكننا القول أننا سواء أكنا على دراية بأعماله الاخرى أم لم نكن ، فان أقاصيصه الاسطورية كافية للكشف عن خصائص فنه وروحه .

ولقد عرفنا ان اندرسن بدأ حياته الفنية مبكرا ، ولكن السنوات العشر الأولى منها كانت تنقصها الشخصية ، والاصالة الذاتية . ولم يتأت له ذلك الا منذ سنة ١٨٣٥ . ولقد ظهرت أولى هذه الملامح الخاصة فى قصته « خطوات المجد » وكان قد كتبها بالطريقة السهلة الممتعة التى أخذها عن مدرسة (هايبرج) مع تميزها بسحر طبيعى ومرونة لم تصل اليها تلك الجماعة الأدبية . وهذه القصة عبارة عن لمحة هزلية لمجتمع كوبنهاجن فى ذلك العهد ، وبها تغير مفاجىء يعودنا الى ارض الاساطير دون ان نحس بأى ارتباك ينتاب قلم أندرسن الرشيق .

وجاءت المرحلة الثانية مع « قصة أم » حيث اختفت الاستطرادات العاطفية والسخرية اللاذعة التى تميزت بها المرحلة الأولى . أما المرحلة الأخيرة فهى المرحلة الذهنية ، وهى التى كتب فيها أندرسن أخلد أعماله ، بل هى التى أخرجت الأدب الدانمركى من النطاق المحلى الى النطاق العالمى .

ومن وراء أيه واحدة من هذه المراحل الثلاث نستطيع أن نستشف شاعريه أندرسن وفلسفته ، ولقد كان أندرسن من أولئك الذين يحملون فى قرارتهم ملامح الرجل الفطرى برغم وجوده فى قرن بلغ من الثقافة والتطور درجه كبيرة . وتتمثل هذه الفطريه فى الطاقه الهائلة من النشاط التى كانت تتملكه – وهذه من الملامح المميزة لسكان المناطق غير المتمدينة ، ولقد أثار أندرسن بذلك رعب الباحثين واعجابهم . انه لم يكن يعرف الراحة أو الاستقرار قط . كان دائم الترحال فى عصر كانت الاسفار فيه موقوفة على أصحاب الملايين أو كبار التجار أو المغامرين . كما أنه أضنى نفسه وأنهكها من أجل انتاجه ، تماما كما فعل بلزاك وكيركجورد . وكذا كان لأندرسن ذكاء الرجل البدائى وفطنته ، وكانت لديه البراعة والمقدرة على خلق مفاهيم جديدة بدلا من استعمال المفاهيم التى كانت فى متناول الجميع .

وكانت لأندرسن أحاسيس الرجل الفطرى فى عنفوانها وتفجرها ، فقد كان يرى كل شىء ويتذوقه ويحسه ، وتعتبر أقاصيص أندرسن أكثر الأعمال

« المحسوسة » بعد أشعار أوهلنشليجر ، فهذه الاقاصيص تنبض باللون والضوء والحركة فى اصالة ومعاناة لا تتأتى الا لموهبة طبيعية غير عادية ·

أما حياته العاطفية فكانت من العنف بحيث أرعبت معاصريه ، بل وأرعبته هو أيضا · فلقد ولد أندرسن بحساسية عصبية جعلته يشعر بكل شيء فى حدة فائقه ، وترتب على هذا قيامه بتصرفات ، وتقلبات مزاجيـــة أعنف مما هو معهود فى الرجل العادى ·

والواقع انه كان من رأى معاصريه انه لا علاقة معقولة بين ما يبدو عليه من بهجة غامرة أو ما يكتسحه من يأس أسود وبين الحادثة التى تدفعه الى تلك الانفعالات · فقد كان يبكى فرحا عندما يتلقى ــ وهو فى الخارج ــ خطابا من أحد أصدقائه بالدانمرك ، وكان يقع فى هوة من اليأس عندما يخيــل اليه ان الناس قد قسوا عليه ، أو عندما يفشل فى أحد أعمــاله ، أو اذا ضايقه شيء كبير أو صغير ·

ويروى عنه أنه بعد أن فرغ من كتابة « قصة أم » امتلأت نفســـه بالبهجة ومضى مسرعا نحو عائلة من أصدقائه المقربين ليقرأ عليها القصة بصوت عال · (والقصة تروى حكاية أم اختطف الموت وحيدها) ، ولم يكن أندرسن يدرى أن الاسرة التى يقرأ عليها القصة قد فقدت طفلا لها منــذ بضع سنوات · وما ان اكتشف اندفاعه الطائش ، حتى نسى تماما قصته وانكفأ على قدمى الأم الحزينة وأخذ يبكى معها بكاء مرا ·

وأخيرا كان لاندرسن ايمان الرجل الفطرى · ويجب ألا يخدعنا كونه قد أخذ عن والده المعالجه الذهنية الناقدة للمعتقدات المسيحيه ، فلقد كان أندرسن فى ايمانه وفى ارتداده ــ على السواء ــ فطريا ·

ويمكن أن ندرك ملامح هذا الايمان الفطرى اذا عدنا بذاكرتنــا الى الايام التى كان يتدرب فيها أندرسن على الغناء على يد « سيبونى » · وكان أندرسن يريد الاقامة فى أحد « البنسيونات » فى (أولكجاد) ، فأصرت صاحبة « البنسيون » على ايجار شهرى قدره ٢٠ جنيها فى الوقت الذى لم يكن لدى اندرسون سوى ستة عشر جنيها · ويروى أندرسن هذه الحادثة فيقول : « ·· وأصرت المرأة على موقفها ثم تركتنى وغادرت الغــــرفة وقد استولى على حزن شديد وانهمرت الدموع غزارا من عينى ، وفجأة شاهدت صورة لزوجها الراحل معلقة على الجدار فوق احدى الارائك ، فمضيت اليها كالطفل وبللتها عن آخرها بالدموع المنسابة من عينى ، حتى يدرك الرجل ــ هكذا تصورت ــ الى أى مدى أنى تعس وحزين ، فيحمل زوجته على النزول عن صلابتها فتقبل المبلغ الذى كان فى جيبى · ولابد ان المرأة فهمت أنه من غير الممكن أن تحصل على أية زيادة أخرى، لانها بمجرد أن عادت أخبرتنى بالموافقة على ايوائى بالسته عشر جنيها » ·

هكذا كان أندرسن : كان فطريا فى ذكائه ، وفى أحاسيسه ، وفى ايمانه · وعلى عاتق مثل هؤلاء الناس ــ الذين ينطوون على آثار من الفطرة ازاء حضارة متطورة ــ يقع عبء التقدم الثقافى · انهم هم المخترعون ، وما على غيرهم الا أن يجنى ثمرة ما وصلوا اليه · وان خط النضال الذى يســيرون

عليه ليعيشوا بالاسلوب الاكثر طبيعة بالنسبة لهم هو المضمون الرئيسي لقصص حياتهم ، وهذا هو ما يوحي بأنهم شواذ غريبو الاطوار •

وتكمن عظمة اندرسن في قبوله لكل ما مني به من غرابة وشذوذ على انها هبة من الله ، كما تكمن أيضا في حقيقة احساسه بأنه اصطفي ليكون شاعرا فلقد كان يعرف قدر نفسه • وبينما نراه قد ضحى بكل شيء من أجل رسالته ، فان كثيرا من معاصريه كانوا يعتبرون هذه الخاصية بالذات نوعا من الغرور • وربما كان ذلك صحيحا في بدء حياته ، ولكنه تطهر من أي احساس بالغرور فيما بعد • ويرجع الفضل في هذا أولا الى (أورستد) أستاذه الذي قاده الى نبع الفكرة الصافي • لقد جعله أورستد يحس بأن حياة المرء المصطفى يجب أن تكرس من أجل الفكرة التي اصطفي من أجلها •

وجاءت بعد (أورستد) (جيني لند) فأعطته درسا مجيدا حينما كشفت له ان الفنان يجب ألا يعيش الا من أجل رسالته ، ناسيا كل شيء حتى نفسه•

ووعى أندرسن كل هذا ، فتعلم تلك الحياة بعد ذلك• وبرغم اصراره، وقوة شخصيته ، وكبريائه التي كان يبدو بها ـ كشاعر ـ أمام الناس ، فانه أمام الله كان يذوب تواضعا وطفولة •

ان حياته الروحية كانت تتسم بميزتين أساسيتين الى جوار ملكاته الفنية وموهبته الشعرية :

وأولى هاتين الميزتين انه كان يثق ثقة قاطعة في (الملاك) الذي يحرس عبقريته ، وفي ان هذه العبقرية لن تتخلى عنه على الاطلاق •

أما الميزة الاخرى فهي تلمذته على الطبيعه التي لم يكن يكف عن الذوبان في أجوائها والتعبد في محرابها منذ أن كان يهرع بخيمته الصغيرة التي صنعها من احد أثواب أمه نحو غابات (اودنز) ، الى ان اخذ يجوب آفاق أوروبا ويقف مذهولا أمام مفاتن الطبيعة الخلابة •

وهكذا فان آندرسن يبدو بأصدق صورة في هاتين الحالين : حينما ينصت الى نداء عبقريته ، فيندفع غير مبال نحو تحقيق آماله ، وحينما يسلم حواسه الى الطبيعه وينقلب بين احضانها طفلا صغيرا •

ولم يحدث أن تعارضت القوتان او اصطدمتا ، بل على العكس كونتا حلفا مقدسا ، وجعلتا من أودنز ، القرية الصغيرة ، كعبة يهفو اليها الصغار والكبار على حد سواء في جميع أنحاء الدنيا •

***

٢٠ – زهرتان من روضة شعره

أرض الـــوطن

فى الدانمرك ، أرض البساطة ، كان مولدى ...
وفى ثراها العذب تعمقت الجذور التى منها استمددت كل كيانى ...
فيا لغة الوطن ، ان رنينك عذب رخيم ...
وليس كرنين لغة الوطن (بلسم) للنفوس ...
ويا ساحل الدانمرك الباسم
حيث تحتشد قبور الفايكنج المحاربين

ومن حولها تزدهر البساتين ..
وتتجمع شجيرات حشيشه الديثار ..
انك .. أنت التى أحبها ، يا أرض الوطن الحبيب .
أين يتألق الصيف فى المروج الزاهرة
أشد مما فى بسمات الساحل البهيج
أين جمال الظل الواقع على حقل البرسيم وقد غمره ضوء القمر
من جمال شاطىء الوطن ..
فيا ساحل الدانمرك الباسم
حيث يرفرف علم الوطن الغالى

انه هبة من الله .. الذى منحك الخلود
انك .. أنت التى أحبها يا أرض الوطن الحبيب ..
غزوت أرض الانجايز يوما وحكمت بلادهم ..
وبلاد الشمال كلها .. ولكنهم يقولون انك قد ذويت الآن ..
وأصبحت أرضا صغيرة ، ولكن فى أنحاء المعمورة ..

تتردد أغانى بابلك (١) ·· وتقف تماثيل فنانك (٢) ··

فيا ساحل الدانمرك الباسم
ان المحراث يخرج من باطن أرضك الكنوز الذهبية ··

جعل الله مستقبلك يا وطنى كذهب أرضك
فانك ·· أنت التى أحبها ، يا أرض الوطن ··
فيا أرض البساطة التى كان فيها مولدى ··
وفى ثراها تعمقت الجذور التى استمددت منها كيانى ··
رنين لغتها العذبة الرخيم ·· لغة أمى ··
وقد طرب فؤادى مثل موسيقاها

ويا ساحل الدانمرك الباسم
حيث أقام البجع أوكاره

وفى جزائرك الخضراء يجد قلبى الراحة والهدوء ··
فانك انت التى أحبها يا أرض الوطن ··

---

(١) الشاعر الدانمركى أوهلنشلاجر
(٢) المثال الدانمركى تورفالدسن

الطفل المحتضر

(من وحي الايام الكئيبة التي عاشها أندرسن في بيت ميسلنج)

أماه .. انني متعب .. وأريد الآن أن أنام
دعيني أستغرق في النوم ، وأشعر بقربك مني ..
ولكن لا ينبغي أن تبكي .. أرجوك .. هل تعدينني ؟
اني لأشعر بدموعك الحارة تنثال على وجهي ..
الجو هنا بارد ، والرياح في الخارج جد عاصفه ..
ولكن في الاحلام .. آه لشد ما احب ما فيها ..!
فيها أستطيع أن أرى أحبابي من الملائكة الصغار ..
عند ما أغلق عيني الغافيتين .. وأستريح ..
أماه .. أنظري .. ها هو ذا (الملاك) .. هنا .. بجانبي
هل تسمعين تلك النغمات العذاب تنساب ..
هل ترين أجنحته .. جميلة .. بيضاء ..
يقينا .. ان الله هو الذي منحه اياها ..
وان الأطياف الخضراء والحمراء والصفراء تنتشر حولي ..
انها الازهار التي تنثرها الملائكة احتفاء بي ..
ترى ، هل سيكون لي أجنحة وأنا على قيد الحياة ؟
يبدو يا أماه ، ان هذا لن يكون الا بعد الوفاة ..
أماه .. لماذا تضمينني بهذه القوة الى صدرك ؟
لماذا تضعين خدك هكذا على خدي ؟
ولماذا أشعر بخدك في آن واحد مبللا .. ملتهبا ؟
أماه .. لسوف أبقى معك .. دائما !
نعم .. ولكن .. ما هكذا تسرفين في التنهدات ..
فانك حين تبكين سأبكي .. أترين
الى أي حد أنا متعب ..؟ ان عيني توشكان أن تنعسا
أماه .. انظري .. ان (الملاك) جاء يقبل مني الجبين ..

٣ – قبس من فلسفته

كانت الرحلة التي بدأت بأندرسن وهو غلام فقير وانتهت بهمستشارا للدولة رحلة حافلة بالأحداث، خبر فيها مختلف الطبقات الاجتماعية٠ فعرف فى طفولته عامة الشعب الذين يعيشون يوما بيوم ، بعيدين عن الاضواء ؛ قابعين فى الجانب المهمل من الانسانيه ٠ ولم تنسه الاحداث التى مرت به ذلك الوسط الذى فتح عينيه عليه لأول مرة ، بل ظل مشدودا اليه حتى اذا ما تملك ناصية القلم أخذ يدافـــع عن بيئته الأولى ويكشف للناس عن كوامن الخير فيها ٠

ولقد كان من مميزات ذلك العصر التطلعات السامية الخيالية وعبادة الابطال القدامى للجنس الشمالى ، فكان عصرا فى حاجة الى ناقوس يوقظ جوانب العطف فيـه ، وجاء أندرسن ليخلق « أبطالا » جـــددا من أولئك المهملين القابعين وسط الظلال ٠

وما ان نزح أندرسن الى كوبنهاجن حتى استطاع أن يرقى الى أعتاب الطبقة المتوسطة فأخذت تتبدى له أخطاؤها يوما بعد يوم ، ثم استطاع بعد ذلك أن ينزل ضيفا على كثير من الارستقراطيين فى الداخل والخارج ٠ وفى كل الاوساط التى تقلب فيها أندرسن صاحبته تجاربه وخبرته بالطبيعة والحياة ٠

على ان آندرسن حينما أخذ يلقى الضوء على عيوب الناس وأخطائهم ، لم يكن يخرج هـذه الشـــخصيات عن دائرة الجنس البشرى ٠ فلم يكن اندرسن فى سخريته ساخرا وحسب ، مثل بعض الممارسين لهذا النوع من الكتابة ٠ انه حين صور لنا فتاة يكاد يقضى عليها البرد ليلة عيد الميـــلاد بجوار نافذة منزل ينبعث منه الدفء والشبع والسعادة – كان يصور كل ذلك بدون أى هدف سياسى ، وانما أراد أن يقود الناس من أيديهم الى أعمق أعماق انسانيتهم ٠ ولقد ظل اندرسن فى جميع مراحل صراعه على اتصال دائم بالحياة ، قابضا على ادراكه المتواضع بأن الحياة معجزة وستظل هكذا دائما ٠

ولقد أخبرنا أندرسن بكل ذلك فى قصصه الاسطورية٠وبعض هذه القصص يتصل بالناس مباشرة ، وبعضها صور متحركة للحياة اليوميـة مثل قصة « بائعة الثقاب الصغيرة » وهناك قصص أخرى تؤدى الاشـــجار والأزهار والحيوانات والجمادات الادوار الرئيسية فيها على حين يبـــدو الانسان فى المنظر الخلفى أو لا يبدو على الاطلاق ، ولكن هذه الاشياء أيضا تلبس ثوب الحياة ، فهى تتحدث وتفكر مثل البشر تماما ٠ على أن مظهرها الخارجى وأفكارها تتوقف بالتأكيد على الظروف التى تعيش فيها ٠ فالدجاج

والبط فى قصة « البطيطة القبيحة » لا يعرف عن العالم سوى أنه فناء صغير، ولا شيء بعد ذلك الفناء على الاطلاق • أما شجرة الصفصاف فلا تدرى من الحياة أكثر مما تستطيع رؤيته من مكانها ، وهي تبنى اســـتنتاجاتها من التجارب التى طرأت لها فى هذه الحدود •

ومع ذلك فان الطريقة التى تتناقش فيها هـذه الشخصـيات لا تختلف عن طريقة الانسان . ولهذا نستطيع ان نقول : ان اندرسن حينما كان يورد هذه الأشياء كشخصيات حية انما أراد ان يرمز بهـا الى أفراد فعليين صادفهم فى حياته . أو بمعنى آخر كان اندرسن يقدم صورا كاريكاتورية للنماذج الحية التى عاصرها : فهو ــ مثلا ــ حينما كتب عن شجرة الصفصاف أراد أن يتحـدث عن أولئك النـاس ذوى الطموح الذى لا يشبع ، أما الدجاجة التى كانت فى بيت السيدة العجوز حيث ضلت البطيطة القبيحة فلم تكن ســـوى « تشخيص » للطبقة المتوسطة بكل ما تتسم به من حدود .

ولقد كان أندرسن يعلم أن هناك أناسا عظاما ، وأناسا صغارا ، الأغنياء والفقراء ، السعداء والتعسين ، القانعين وغير القانعين ــ وانه لابد لكل نمط من هذه الأنماط أن يعيش حيـــاته الخاصة بالاسلوب والعادات التى تتناسب مع تلك الحياة ، وأن لكل حكمه الخاص على الحياة والعالم . ويرجع ذلك كله الى الميلاد والبيئة التى تحيط بكل فرد دون أن يكون فى مقـــدورنا أن نقـــول : ان فلانا أصاب واخطأ الآخرون ، فمن الطبيعى جدا أن يكون الصياد الصينى وفتـاة المطبخ الصغيرة التى تعيش فى قلب الغابة بجوار البحيرات العميقة الصافية من الطبيعى أن يكون تفكير كل منهما واحساسه مختلفا تمام الاختلاف عن نظيرهما لدى رجل البلاط الذى يعتبـر الاتيكيت والمركز من أهم ظواهر الحياة وأخطرها • ومن الطبيعى أيضـــا أن تكون لبائعة الثقاب الصغيرة ــ التى كانت جدتها هى الأمل الوحيـد لها فى الحياة قبـل أن تموت ــ من الطبيعى أن تكون لها هى الاخـرى مفـاهيم مختلفة عن مفاهيم الأميرة التى ضايقتها حمصة تحت الحشيات العشرين التى كانت تنام عليها .

وليس معنى ادراك أندرسن أن لكل انسان طريقة فى الحيـاة ، ان الشاعر كان مصـابا باللامبـالاة ، ولـكنه كان يضيق بأولئك الذين لا يعترفون بالقيم المختلفة التى تزخر بها الحياة . وهو يعنى « معشر الماديين » الذين أهدروا كل ما لا يدور فى فلكهم من أهداف واتجاهات ومثل . ولم يكن اندرســن يترك أية فرصـة للهجوم بقوة على أولئك الناس ويتضح هذا الهجوم سافرا فى « البطيطة القبيحة » .

وتتضمن القصص الأسطورية فوق ذلك بعض الافكار الفلسفية العامة . فلقد أدى التعرج الذى أصاب الخط البيانى لحياة أندرسن الى ادراكه سر المنخفضات والمرتفعات التى تمتلىء بها الحيـاة . وفى قصته « البطيطة القبيحة » يقول لنا أندرسن : إن العبرة بالنهاية ، وكل شيء سينتهى بأفضل الحلول برغم الظلام الذى يحف بالطريق . ولقد كرر هذا المعنى فى عدد آخر من قصصه . ولكن الشاعر كان يدرى

أيضـا أن هذا ليس هو كل شيء في الحيـاة ، وأن العـالم به ظلم وأحزان أيضا .

وفي « قصة أم » يقدم لنا صورة مؤثرة عما تأتي به الأيام أحيانا من قسوة لا حدود لها ، وكيف أن عطف الام على الرجل العجوز كان جزاؤها سرقته لابنها ، وكيف طلب « الليل » و « شجرة الشوك » من الأم المسكينة ابشع ما يطلب من انسان :

فقد طلب الليل منها أن تغني كل الأغاني التي كانت الأم تغنيها لطفلها على حين أن قلبها مكلوم على فراقه .

أما شجرة الشوك فقد طلبت من الأم أن تضـمها الى صـدرها بشدة حتى يذوب عنها الجليد وتورق من جديد .

وبعد أن نفرغ من قراءة تلك القصة يعترينا احساس بأن اندرسن المتفائل قد انقلبت لديه المفاهيم وضاعت كل الثقة التي كانت تطفح بها كتاباته ، ولكن أندرسن لم يكن كذلك ، لأنه كان على علم بكل الظروف التي يمكن أن تقدمها الحياة لنا ، كما أن النهـاية التي انتهت اليها « قصة أم » لم تكن تخلو من بعض العزاء والثقة ، فبرغم أحزانه وخيبة آماله كان يحتفظ دائما حتى النهاية بايمان لا يتزعزع بجوهر الحيـاة الخير ، وبجمالها وبهجتها . وكان يؤمن بأن الذين يستعدون لتقبل نعم الحياة كبيرها وصـغيرها لن تخيب آمالهم أبدا — وأنه في الامكان أن تنقلب الأحزان الى نعمة — فقط لو تقبلناها بالطريقة السليمة .

ولعل أهم ما في فلسفة أندرسن هو ايمانه بأن الكفاح — وان كان طريقا داميا — لا ينتهي مطلقا الا بأحسـن الجزاء ، بصرف النظر عن الثمرة أمباشرة جاءت أم عن طريق غير مباشر ، ولتفسـير ذلك أقول ان اندرسن كان همه منذ الطفولة أن يكون من أعلام المسرح ، وحفيت قدماه ليعتلي الخشبة الخالدة مغنيا أو ممثلا ثم كاتبا مسرحيا ، ولكن كل آماله انتهت الى لا شيء . فانكفأ يجرب حظه في الـكتابة ، فكتب الشعر والقصص وكتب الاسفار والخواطر ، ولكن الحظ لم يواته هـذه المرة أيضا ، وأخيرا — وبعد ضياع عدة سـنوات من عمـره — وجد الثمرة فيما لم يطرأ له على بال مطلقا ! وذهـل أندرسن أول الأمر حـين وجد أن شهرته قد جاءت عن طريق أقاصيص الأطفال ... ولـكنه سرعان ما أدرك أن ذلك لم يكن محض مصادفة ، بل كان الجزاء الأوفى على نضاله المستميت في سبيل المجد والشهرة برغم اختلاف الطريق الذي حدده لنفسه عما قدرته له العناية الالهية .

حقا ان حياة هذا الكاتب الدانمركي حافلة بالجوانب التي تبين للشباب طريق الكفاح في الحياة والاتجاه نحو المجـد والمثل العليـا ، وزاخرة بالصور الرائعة التي توضح لنا كيف يمكن قوة الارادة والصبر على آلام الحيـاة ، والتشبث بالهدف المرموق ، أن تحقق للانسـان كل ما يرجو ، بل أكثر مما يرجو .

وثمة لفتة أخرى لا تقل أهمية كشف لنا عنها أندرسن بحيـاته وآلامه وجهـاده المرير ، والواقع أن هـذه اللفتة ليست مجرد تجربة

صغيرة بل انها قاعدة انسانية هامة أصبحت ـ بعد أن سلط أندرسن الضوء عليها ـ نصب عيني كل فنان يريد أن يصل الى الكمال الفني . وهذه القـــاعدة هي : « الكمال الفني = موهبة + علم » ؛ فلقد كان أندرسن موهوبا منذ صغره ، واسع الخيال ، شديد الرغبة في الوصول الى « الشهرة والمجد » . وقد ظن أن مواهبه سوف تغنيه عن الدراسة المنتظمة ، وعن الاقبال على مناهل العلم والثقافة .. فرفض أن يلتحق بالمدرسة في صغره ، وتعالى أيضا عن اتخاذ أية مهنة للكسب ، ومضى يشغل وقته بنظم الاشعار وتأليف القصص المسرحية بأسلوب رديء وطريقة بدائية . ولمـا وصل الى الدانمرك ، ظن أن أبواب المجد تتفتح أمامه ، ولكنه لم يلبث أن أفاق من أحلامه على رنين النصائح التي كانت تحيط به من كل مكان ، وكانت هذه النصائح تتركز في كلمة واحدة : « العلم » . ولم يأبه أندرسن أول الأمر ، ولكن الواقع الذي جابهه أقنعه باخلاص الناصحين . وبعـد أن تذوق لذة العلم ورأى ظلمـات الجهل وهي تنقشع تدريجيا ، عاما بعد عام ، أمام نور المعرفة ، أدرك انه كان غافلا بحق ، وأخـذ ينهل من ينـابيع العلم متـداركا ما فاته طوال عمره .

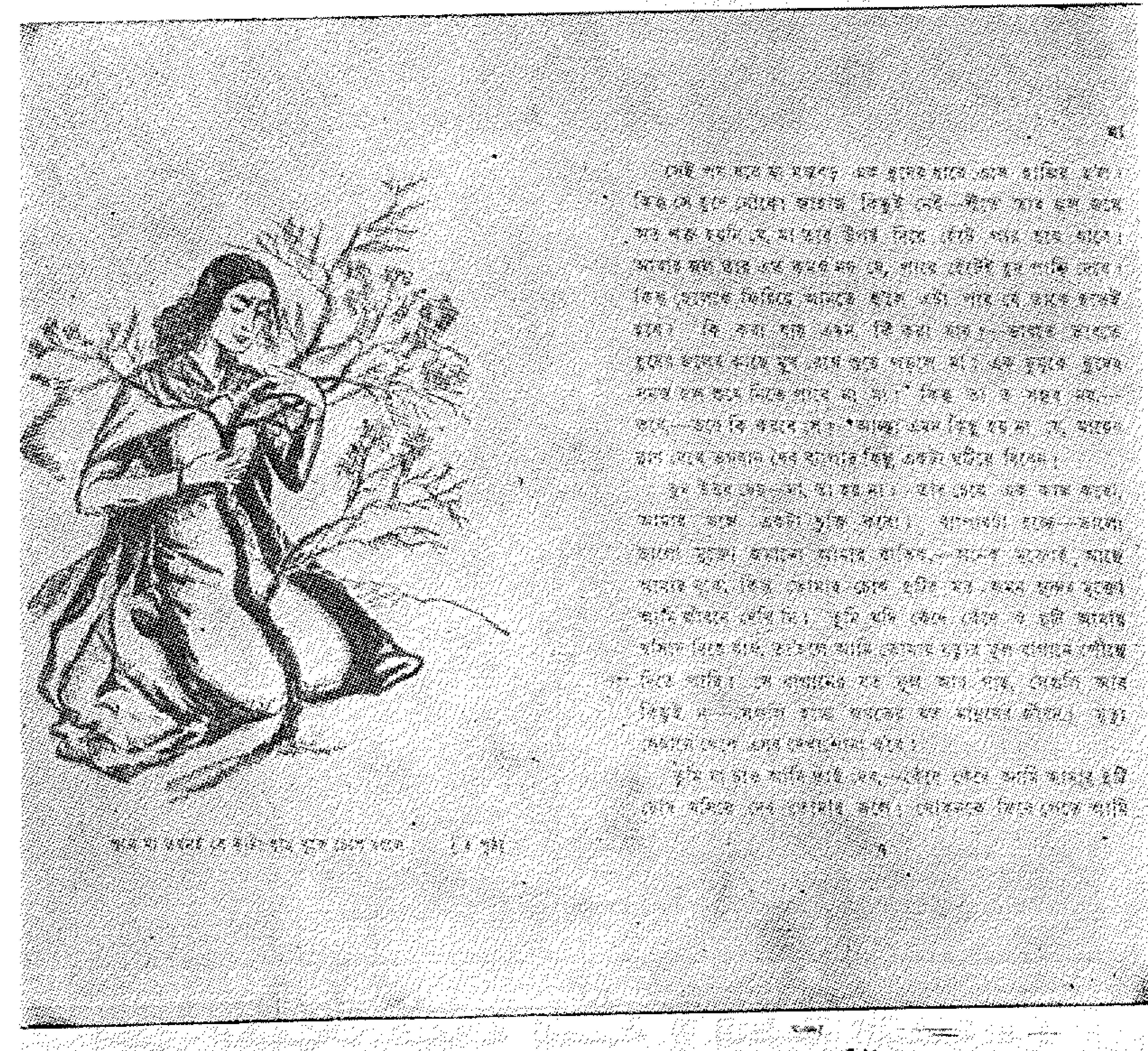
هكذا كان أندرسن : عزيمة كالسيف ، وايمانا لا يهتز بمواهبه وبالعناية الالهية ، ثم تواضعا جعله يرضخ وهو في السابعة عشرة من عمره لرغبة ثلة من الناصحين الأمناء فدخل مدرسة كان أكبر تلاميذها لا يصل برأسه الى مرفقه .

ولهذا فقد كانت فلسفة أندرسن ـ فلسفة الاصرار النابع عن الايمان بالنفس وبالله ـ صريحة ومستقيمة ، لا هي بالشاذة أو الملتوية . انها فلسفة نموذجية لكل جيل يبحث عن القـدوة الحسـنة . وهي الفلسفة التي جعلت طاغور يخاطب أهل الدانمرك عندما زارهم يوما بقوله : « لماذا تريدون أن يزداد عدد اسكان عندكم .. يكفي أن يكون هانز أندرسن منكم .. » .

الفصل الخامس

أندرسن حول العالم

لا جدال فى أن هانز كريستيان أندرسن يتمتع بشهرة عالمية ، فلقد أصبحت أعماله ـ ابتداء من الطبعات الكاملة لكل ما كتب ، الى عدد محدود من أقاصيصه الأسطورية ـ مقروءة بأكثر من ٦٠ لغه مختلفة . ولقد ترجم أندرسن الى جميع اللغات الأوروبية بلا استثناء . وعن طريق هذه اللغات التى كان يتمتع الناطقون بها بالسيطرة الاستعمارية على قارتي آسيا وافريقية منذ القرن الماضي حتى قبيل الحركات التحررية الأخيرة ، عرفت اللغات الآسيوية والافريقية شأن أندرسن ، حتى لغتا الكولولو الافريقية والاسبرانتو وغيرهما .



« الأم تضم الى صدرها شجرة الشوك »

هذا المنظر يصور أحد مشاهد « قصة أم » ؛ ولقد ظهر فى الطبعة البنجالية للقصة ضمن مجموعة من قصص أندرسن صدرت فى كلكتا سنة ١٩٣٥ ـ ولا يخفى على القارىء الشخصية الهندية للرسم .

ولقد انتشرت شهرة الكاتب الدانمركي الكبير مثلما تنتشر الدوامة التي يحدثها القاء حجر في المـــاء . فترجم أول ما ترجم الى الألمانية ، ثم السويدية ثم الهولندية قبل عام ١٨٤٠ . ثم ترجم فى روسيا وانجلترا والولايات المتحدة حوالى عام ١٨٤٥ . وبعد ذلك بقليل ترجم فى فرنسا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا . وفى سنة ١٨٦٠ ترجم فى أسبانيا وايطاليا ثم انتقل منهما بالتدريج الى بلاد البلقان البعيـــدة كافة . وبرغم أن



احدى الطبعـات اليابانية لقصـة ((البطيطة القبيحة)) ، ويبدو الطابع الياباني واضحا فى الرسم .

معرفة آسيا لاندرسن معرفة طفيفة ومبعثرة فانه يجدر بنا ان نقول : ان اليابان الحديثة تهتم به اهتماما كبيراً .

واذا أردنا أن نستقصي حظ أندرسن فى البلاد المتاخمة للدانمرك والتي عكفت على ترجمته أكثر من أى مكان آخر ، فلابد أن نذكر أن اغلب المترجمين قد اهتم أولا برواياته ، ثم بأقاصيصه الأسطورية . ولقد كان بعض هذه الترجمات رديئا والبعض الآخر جيدا غير ان كلتيهما كانت على اية حال اساسا لغزو أندرسن للغات الاخرى كافة .



((البطيطة القبيحة)) أيضا — فى الطبعة الاسبانية

وفى نهاية القرن التاسع عشر بدأ التصرف — على نطاق واسع — يبدو فى كتابات اندرسن ، وبرغم أن قلوب الأطفال قد تفتحت له فى جميع أنحاء العـــالم ، فانه فقد بسبب هذا التصرف مركزه كعلم من اعلام الادب وبدأ الاحترام لمكانته الفنية يضمحل شيئا فشيئا .

ولقد كان لهذا التصرف فى أقاصيص أندرسن ما يبرره ، فقد بدا من الصعب على أية حال نقل اللمسات الدقيقة التى اتسمت بها طريقة أندرسن الجديدة فى الكتابة ، وكذا التعبيرات القوية التى كانت من خصائص اللغة الدانمركية ـ كان من الصعب نقل ذلك الى اللغات الأخرى .

ولسوء الحظ أن « الحدوتة » لم تكن هى كل شيء فى أقاصيص أندرسن . وفى هذا المعنى يقول « كاج مونك » الناقد الدانمركى : « ان التأليف الأدبى نوعان : أدب لتسلية القارىء ، وهو سريع الزوال ، وأدب واقعى عميق له طابعه البانى فى الحياة ، ويمكن أن يكون فى الوقت نفسه مسليا . وقد يبدو لأول وهلة أن الأقصوصة الأسطورية لابد أن تكون من نوع الادب الأول ، ولكن أقاصيص أندرسن تمتاز بالطابع الواقعى ، وبالأصالة والعمق أيضا ، وذلك برغم ما فيها من تهاويل وزخارف .. انها الحياة .. الوجود .. الخلود .. وبرغم ما يبدو فيها من خفة وبساطة ، فهى عميقة جادة » .

بهذا نرى أنه ما من كاتب أسيء اليه بسبب ترجمة كتبه كما حدث لاندرسن . فأسلوبه يمتاز بالقوة والايجاز ، وبصلابة قد تبدو ـ أحيانا ـ عنيفة تند عن أفهام الصغار .. وان فى عباراته مزيجا من الفكاهة ، والتهكم والمرح ، وقد تصل فى قوتها الى حد التوقد والشاعرية ولكنها جافة دائما . ولهذا فان ترجمة أعماله الأدبية فقدت الكثير من أسلوبه . فليس فيها طابع القوة والجفاف ، وليس فيها ذلك المزيج من انفكاهة والتهكم والمرح .

وفوق ذلك فقد عمد المترجمون الى انتزاع الفقرات الوصفية التى تخلو من الحركة ، ثم انهم لم يكتفوا باستئصال كل التفاصيل التى يصعب فهمها على غير الدانمركيين ، بل انهم رفعوا كل التفاصيل على الاطلاق ، وتمادوا فى هذا حتى نزعوا ايضا بعض الأحداث الهامة بالنسبة لهيكل انقصة . ولقد وصلت بعض قصص أندرسن ـ بعد ترجمتها ـ الى عشر حجمها الأصلى الذى كتبه أندرسن .

واستمر فى القرن الحالى هذا الهدر لقيمة أندرسن الأدبية برغم ظهور قلة من المترجمين الأمناء الذين أضنوا أنفسهم فى تصحيح هذا الخطأ الكبير . وما زالت قصصه الأسطورية ـ دون سائر أعماله ـ هى التى تحظى بتسليط الضوء عليها فى جميع أركان الدنيا . أما رواياته وكتب أسفاره وتراجمه الذاتية وخطاباته فما زالت ذات عالم محدود .

ان أندرسن من ناحية « الكم » يحتل مكانة لا ينازعه فيها سوى الكتاب المقدس وشيكسبير .. أما من ناحية « الكيف » فهو ما زال فى حاجة الى مزيد من الاعتراف والتقدير ليصبح احد اعلام الأدب العالمى وليس مجرد كاتب ناجح لأقاصيص الأطفال ، أو كما يطلق عليه « البطل العالمى للأقاصيص الأسطورية » .

مصادر الكتاب

المصادر الاجنبية

1. Hans Christian Andersen, his life and work by various writers. (Copenhagen, 1955)
2. Six Fairy Tales by H. C. Andersen ; ed. by Bo Gronbeech and Eric Dal. (Copenhagen, 1955)
3. Everyone's History of French Literature by Firmin Roz.

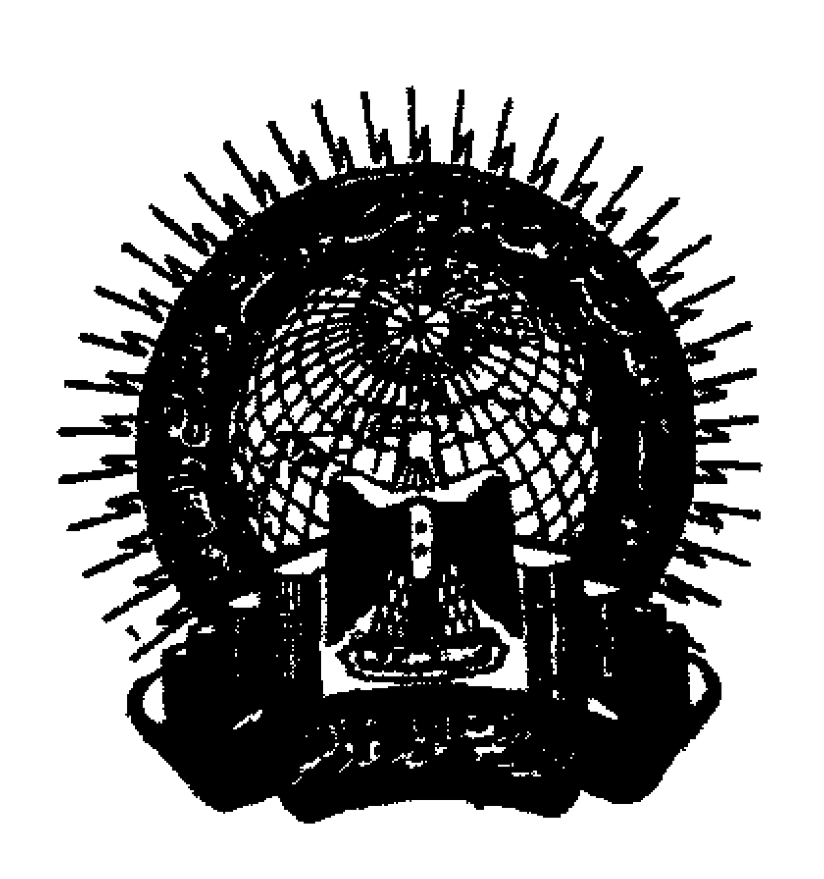
المصادر العربية

١ ـ هانز كريستيان أندرسن ، تأليف رومر جودين ، ترجمة حسين القبانى ٠

٢ ـ أقاصيص هانز أندرسن ، ترجمة محمود ابراهيم الدسوقى

٣ ـ أساطير من الشرق والغرب تأليف سليمان مظهر ٠

٤ ـ بعض المقالات المتفرقة ٠



١٥٧ شارع عبيد ـ روض الفرج
تليفون ٤٠٥٨٨ ـ ٤٠٨١٤ ـ ٤٠٧٥٣ ـ٤١٠١٢ ـ ٤٥٣٤٦



٢٥٧ شارع عبيد – روض الفرج
تليفون ٤٠٥٨٨ – ٤٠٨١٤ – ٤٠٧٥٣ – ٤١٠١٢ – ٤٥٣٤٦

العدد ٢٣ الثمن ١٠ قروش